

دراسة  
في شعر النبط

# الشعر النبطي يحوّل من حمد إلى ذم

أول ما يتبادر للذهن حين نسمع أو نقرأ كلمة "الشعر النبطي" هو البحث ما الشعر النبطي، وما أصل تسميته بالنبطي . . ؟  
 بداية، الشعر النبطي هو لون من الشعر يسمى أحيانا الشعر "النبطي العامي" أو الشعر "النبطي البدوي" . . كما أنه أحيانا يطلق عليه "الشعر العامي" لأن لغته قد تخلصت في كثير من الأحيان من بعض الظواهر التي قد تلتزمها اللغة العربية الفصيحة . . ويظهر ذلك التخلص خاصة في ضبط أواخر الكلمات . . أي العلامات الإعرابية وضبط الكلمة نفسها أو نطقها بين الترقيق والتفخيم والشدة والإمالة إلى آخر تلك الظواهر فهو شعر عامي أي غير فصيح لكنه شعر عربي . . !



١٣٠ - الوثيقة

# الرجل وثوران كاسل للثباتية



جميع واغداد

الله كنوز محمود عطية

الرجل وثوران كاسل للثباتية

# هل يمكن توظيف الشعر النبطي كأحد صاوري الأبحاث الجغرافية والقارضية؟

والشعر النبطي يسمى أيضاً "القصيد" وهو الشعر العربي المنظوم بلهجات الجزيرة العربية وما جاورها، خصوصاً في البحرين ودول الخليج العربي . . وبين أهل البادية في فلسطين والأردن وسوريا وليبيا وتونس . . وعلى الرغم من كونه منظوماً باللهجة المحكية - المتكلم بها - . . إلا أنه يكثر في الشعر النبطي الاعتماد على مفردات فصيحة . . ويكون ذلك عادة تلبية لضرورة الوزن (مثل قول "الذي" و"التي" بدلاً من "اللي")، وأحياناً لدعم المعنى . . والواقع أن الاختلاف الجوهرى بينه وبين الشعر الفصيح يكمن في التخلي عن علامات الإعراب في أواخر الكلمات ونطق بعض الحروف . . وليس في التراكييب والصرف والمفردات التي لاتزال تشابه الفصحى إلى حد كبير (أنظر لهجة نجدية) .

وهناك رواية أخرى ترى أن الشعر النبطي أطلق عليه هذا الاسم أي "الشعر النبطي" لأنه "استنبط" بمعنى استحدث . . وإذا بحثنا في القاموس نجد استنبط الشيء أي استحدثه أو استعده من مصدر موجود ومصدرها نَبَطَ بفتح النون والباء وتعني نبع الماء والاستنباط الاستخراج ولكن هذا المستنبط من أين استنبط ؟ بالتأكيد من الشعر العربي الفصيح الذي كان السائد بالأزمنة التي كانت بها اللغة العربية في أوج عظمتها وكانت قبائل العرب كلها مجتمعة في موطنها الأصلي الجزيرة العربية .

ويقال أن حكاية الشعر النبطي جاءت بدايتها حين بدأت هجرة القبائل العربية في القديم لأسباب مختلفة وتحت ظروف خاصة بها . . نجد منها على سبيل المثال الفزو

# رَأَى يَقُولُ إِنَّ الْبَازِيءَ الرَّسُلَ لَمْ يَحْ هُوَ أَوَّلُ مَنْ لَفَنَى بِشِعْرِ النَّبِيِّ ط

أو البحث عن المراعي حتى أننا نلاحظ من خلال حوادث التاريخ أن كل قبيلة أصبحت تسير بمفردها وتختار لها موقفاً جديداً تقيم به مما أثر على لغتهم العربية بالاستحداث وينحت أسماء جديدة للبيئة . . !

## لهجات جديدة

وبدأت القبائل في استنباط لهجات قريبة من لغتها الأصلية العربية الفصحى والتي لا تبعد كثيراً عنها . . ولكنها تدغم بعض الكلمات وتنطق بعض الحروف بنغمة جديدة وتميز مخاطبة المذكر عن المؤنث ببعض الإضافات وبذلك ابتعدت عن القواعد العربية الرصينة . . من هنا كان الشعر العربي المستنبط من الشعر العربي والذي يختلف عنه فقط بعدم تمسك الشعر النبطي بالقواعد النحوية وإضافة بعض المفردات الدخيلة على اللغة العربية من جراء اللهجة العامية كما نلاحظ أن الشعر النبطي لا هو بالشعر العربي الفصيح ولا هو ببعيد عنه . . فيمكن أن يقال أنه مشتق منه ونستطيع القول أنه الشعر العربي نفسه ولكن بدون ظواهر الإعراب . . فلا غضاضة أن تجد الشاعر النبطي ينصب ما يجب أن يرفع ويجزم ما يجب أن ينصب ويضيف التنوين حسب الوزن وهكذا .

والشعر النبطي هو أقرب للنفس البدوية تدون فيه حياتها الخاصة جداً حتى أنه في رسالة جامعية حديثة عن "الحماسة في الشعر النبطي البحريني" نال عنها الشاعر "عبد الرحمن المضحكي" درجة الماجستير قال مؤكداً على أهمية الشعر النبطي : "إذا كان الشعر ديوان العرب فالشعر النبطي ديوان البادية" .

## شعر مسموع

وعلى الرغم من أن أصل الشعر النبطي شعر محكي أي مسموع "شفهي" فقد تم طبع عدد من الدواوين لهذا اللون من الشعر في السعودية والخليج في القرن الغانت . . وبالطبع الشعر النبطي بالأساس شعر وصل أكثره إلينا عن طريق الرواية والإلقاء بشكل مشابه للشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام . . ولا يزال الاستماع وليس القراءة هو الطريقة المثلى لتلقي الشعر النبطي لدى المهتمين به .

وحتى أوائل القرن العشرين يكاد يكون الشعر النبطي امتداداً لشعر العرب في الجاهلية وشعر أهل البادية في صدر الإسلام، فيكثر فيه استخدام المقدمات الغزلية التي تؤدي بعد ذلك إلى موضوع القصيدة الرئيسي من فخر أو مدح أو حكمة أو نصيح، أو وصف، وبدرجة أقل، الهجاء . ويكون أكثر ما يشابه الشعر القديم حينما يحكي عن مفاخر القبيلة وبطولات فرسانها ووقائعهم .

أما في الوقت الحالي فقد تخلص عن الكثير من المفردات الأكثر صعوبة، محاكياً بذلك التبسيط والتشذيب اللذين لحقا باللهجات البدوية والنجدية عموماً، وأصبح أكثر شابهة للشعر العامي في البلدان العربية الأخرى . ولأنه هو اللون السائد في الأغاني التجارية في منطقة الخليج العربي، فقد أصبح الغزل يشغل القسم الأكبر من الشعر النبطي في الوقت الحالي، ولكن هذا لا يعني أن الشعر النبطي بصورته التقليدية لم يعد له من ينظم به .

الرواية التقليدية بين رواة الشعر النبطي تقول أن أول من قال الشعر النبطي هو الشخصية شبه الأسطورية أبو زيد الهلالي المفترض وجوده بين القرنين الثاني والرابع الهجريين (الثامن والعاشر الميلاديين)، ولكن ليس لهذه الرواية سند علمي . أما أول ذكر للشعر باللهجة الدارجة فيأتي من الشاعر العراقي الفصيح صفي الدين الحلي في القرن الرابع عشر الهجري والمؤرخ ابن خلدون في القرن الخامس عشر، إلا أنهما لم يذكرهما باسم "الشعر النبطي" أما أقدم النماذج الشعرية فمقطوعة من بضعة أبيات لشاعرة من بادية حوران أوردها ابن خلدون في المقدمة، ثم يضع قصائد لأبي الحمزة العامري من

أهل القرنين السابع والثامن الهجريين . وهي في معظمها على اللحن الهلالي (ويقابل بحر الطويل) وبحر الرجز .

وبعد ذلك تأتي قصائد شعراء الدولة الجبرية في شرق الجزيرة العربية ووسطها، ومن هؤلاء جميعثن اليزيدي من أهل الجزعة بوادي حنيقة، الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي، والشاعر عامر السمين . ثم ترد قصائد جبر بن سيار أمير بلدة القصب وابن أخته رميزان بن غشام التميمي أمير روضة سدير، وقصائد أخيه رشيدان بن غشام، وهم جميعا من أعلام القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) . وقد تركوا قصائد ثمينة ليس فقط من الناحية الأدبية واللغوية وإنما أيضاً من الناحية التاريخية لذكرها العديد من الأحداث والوقائع في الفترة التي سبقت ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل سعود في نجد . وفي هذه الفترة على الأرجح عاش أحد أشهر الشعراء على الإطلاق راشد الخلاوي، الذي يذهب البعض إلى أنه من أهل القرن العاشر الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وآخرون إلى أنه عاش إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، واشتهر بالقصائد المطولة المعنية بالأنواء وعلم الفلك والحساب والألغاز .

ظهر في القرن التالي (الثاني عشر الهجري) اثنان من أهم أعلام الشعر النبطي وهما حميدان الشويمير في القصب، واشتهر بقصائد النصيح والحكمة التي لازالت دارجة إلى اليوم لتقيدها بالأوزان القصيرة، بالإضافة إلى القصائد السياسية وقصائد الهجاء، ومحسن الهزاني في الحريق، الذي اشتهر بالشعر الغزلي وأدخل المحسنات البديعية في الشعر النبطي . ويقال أن للهزاني دور في انتشار القافية المزدوجة . ومن شعراء هذه الحقبة نمر بن عدوان من قبائل البلقاء في الأردن، وتوفي سنة ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م) .

ومن أشهر شعراء النبط الآخرين في تلك الفترة محمد بن لعبون الذي سار على منوال الهزاني، بالإضافة إلى تركي بن حميد شيخ قبيلة عتيبة في القرن التاسع عشر، وراكبان بن حثلين شيخ قبيلة العجمان، وبيدوي الوقداني من نواحي الطائف، ومحمد بن عبد الله القاضي من أهل عنيزة، وعبد الله بن رشيد أمير حائل وأخيه عبيد . وفي هذا القرن تظهر مخطوطات الشعر النبطي كالتي حاز عليها الرحالة الفرنسي شارل هوبير . وقد اتسم هذا القرن بغزارة الإنتاج الشعري وانتشار بحر المسحوب (مستفعلن مستفعلن فاعلاتن)، الذي صار أشهر بحور الشعر النبطي . وفي نهاية هذا القرن وبداية القرن

العشرين ظهر الشاعر محمد العبد الله العوني، ويعدّه البعض آخر شعراء النبط الكبار، كما ظهر في هذه الفترة الشاعر عبد الله بن سبيل الذي اشتهر بشعر الغزل .

استمر الشعر النبطي في القرن العشرين وبدأت محاولات تدوينه أو تسجيله حفظاً لما تبقى منه من الضياع، وأشهر الدواوين التي ظهرت في هذه الفترة "ديوان النبط" لخالد الفرج (١٣٧١هـ-١٩٥٢م)، الذي جمعه بناءً على توجيه وزير المالية السعودي عبد الله بن سليمان، و"خيار ما يلتقط من شعر النبط" الذي جمعه خالد الحاتم (١٣٧٢هـ) . وظهر في هذه الفترة شعراء مجدّدون وآخرون حاولوا الالتزام بمنهج الشعراء الأولين في فترة زاد فيها تأثر الشعر النبطي باللهجات الأخرى وتم تبسيطه وفقد كثيراً من جزالته .

لا يزال للشعر النبطي شعبية كبيرة في السعودية ودول الخليج العربي، وتوجد عدة مجلات لما يسمى بالشعر الشعبي، كما أقيم في عام ٢٠٠٧م برنامج تليفزيوني للمنافسة بين الشعراء الشباب أطلق عليه شاعر المليون لاقى رواجاً واسعاً في المنطقة وفي الجنوب التونسي تقام التظاهرات والمهرجانات الشعبية للاحتفال بالشعر النبطي أو "شعر القسيم" كما يسمى في الهاديّة التونسية .

## أوزان الشعر النبطي

معنى الوزن : وزن الشيء، وزناً وزنة : رجع . . ووزن الشيء، قدر بواسطة الميزان أو دفعه بيده ليعرف ثقله وخفته وجمع الوزن أوزان . . يقال وزن الرجل الكلام والشعر : قطعه وميز ثقله وخفته أو نظمه موافقاً للميزان الموزون : شعر موزون جرى على وزن معلوم في الشعر النبطي وكلمة موزون وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الحجر "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون" صدق الله العظيم .

والميزان النبطي هو الغناء "المهيجنة" التي توزن بها الأشعار النبطية بإرجاع القصيدة إلى بحرها بالغناء عليه حتى تستطيع الحكم عليه . . والوزن عند المروزيين : ما بنت العرب أشعارها عليه . . وعند شعراء النبط : الغناء الذي يبني عليه الشاعر شعره فالشاعر النبطي مقيد بالوزن والقافية لا يمكنه أن يتصرف كما يريد .

وللشعر النبطي بحوره التي عرف بها ونظم شعراء النبط أشعارهم عليها منذ نشأة هذا الشعر حتى الآن وقد تعارف الشعراء على النظم عليها وأصبحت عرفاً متبعاً تتوارثه الأجيال دون أن تكتب هذه البحور نظراً للبساطة والعفوية التي عرف بها الشعر النبطي . . وبحور الشعر النبطي تقسم إلى قسمين :

بحور أصلية . . وبحور مبتكرة . أما البحور الأصلية فهي :

الهلالي : وهو أقدم البحور وأول ما نظم عليه الشعر النبطي .

الصخري : ولادته مع الهلالي تقريباً .

الحداء : من حداء البدوي للإبل .

المروبع : بحر جديد كان للشاعر النبطي محسن الهزاني دور كبير في إظهاره ويتألف البيت من أربع شطرات ثلاث منها على قافية والرابعة منها قافية مشتركة حتى بقية القصيدة وله أوزان مختلفة .

القلطة : وهي النظم الارتجالي .

الرجد : بحر نظم عليه أهل شمال جزيرة العرب أشعارهم .

أما البحور المبتكرة فهي :

المسحوب : مشتق من بحر الهلالي وهو أقصر منه بحرف واحد .

الهجيني : ولد من الحداء حيث أخذ طابع الغناء للإبل والهيجنة على ظهورها وبقيت تسمية الحداء تخص أهاليج الفرسان على ظهور خيولهم للحماس .

السامري : بحر ولد من الهجيني حينما أرادوا أغاني يسمرون بها ويغنون وهم جلوس فلحنوا لذلك بعض الهيجينيات ألحاناً خفيفة تصلح لموضع الجلوس . . . وغنوها فكان بحر السامري على هذا النمط حتى ظهرت له قصائده الخاصة .

الفنون : بحر أسسه ابن لعبون كلون يتميز به عن غيره من البحور النبطية وقد اشتقه من السامري حيث يؤدي بنفس الطريقة .



العرضه : اختلفت الآراء في العرضه . . فمنهم من يقول أنها امتداد لاستقبال الرسول ﷺ عند قدومه المدينة المنورة ومنهم من يقول أنه نوع من الحداء مشتقة من هذا البحر تغنى فيها القصائد الحماسية .

الجناس : وهو الابن الشرعي للمربع ابتدعه أيضاً شاعر النبط محسن الهزاني .  
الزهيري : بعد ظهوره شعر شعراء النبط أنهم بحاجة إلى استعراض قوتهم بشكل أوسع فنظموه وأدخلوا عليه الألفاظ النمطية .

## نظم أوزان الشعر النبطي

ولتقريب الصورة أكثر نعرض هذه الجملة (ياسامعين الصوت . . صلوا على النبي) بجميع بحور الشعر . .

الهلالي :

ياسامعين الصوت صلوا على النبي . . . صلوا عليه وسلموا تسليماً

الصخري : ألا ياسامعين للصوت صلي . . . على محمدن سيد البرايا

الحدا : ياسامعين أصواتنا . . . صلوا معنا عالنبى

المربع : ياسامعين للصوت صلي وسلم . . على النبي من بل تبدأ تكلم

وإن كنت جاهل في حياتك تعلم . . على النبي المحمود أذكى الصلوات

القلطه : ألا ياسامعين للصوت صلي على النبي المختار . . .

محمد صفوة العالم رسول الله حبيب الله

الرجد : صلوا يا هالمسلمين . . . على النبي المختار

المسحوب :

ياسامعين الصوت ياناس صلوا . . على محمد واكثرخوا بالسلامي

الهجينى : يا سامع الصوت وتصلني . . على محمد رسول الله

السامري : ياسامع الصوت لاتنسى تصلي . . عالنبى عدا ما هل الهلالي  
الفنون : سامعن للصوت لا تنسى الصلاة . . عالنبى المصطفى سيد البشر  
العرضة : سامع الصوت لبتك تصلي . . عالنبى إعداد وهل السحاب  
الجناس : ياسامع للصوت لازم تصلي . . صليت لله وعالنبى دوم صليت  
الزهيري :

يامن على المصطفى سمع حديثه وصل . . وغسل ووجه صوب قبله وصل  
العبد لامن شكر للخير لامن وصل . . يقرأ التشهد قبل لا يبدأ التسليم  
سلم لرب البشر تفوز بالتسليم . . لأن العمر لا يطل تليته التسليم  
والمسعد اللي شكر ربه وشكره وصل

وليس نظم هذه الأبيات النبطية أنها تغني من يحب أن ينظم على منوالها  
بسهولة . . فهذه هي البحور الرئيسية ويتفرع منها بحور كثيرة وأوزان متعددة تحتاج  
من صاحب الملكة الشعرية دربة ومراناً وحفظاً للأشعار النبطية .

## أوزان الشعر النبطي . . . البحر الهلالي

ما معنى الهلالي . . . ينحصر المعنى في اللغة في عدة أمور

- الظهور والاستلال للسيف والوضوح واستهلال القصيدة
- البياض والتألؤل والحسن
- الصوت سواء بالتلبية والذكر أو البكاء للطفل أو صوت الكلب
- الاستقواس : من الهزال أو من صورة الزاي والراء أو الحية حين تتلوى في  
الاستقواس وقلة لعدم الاكتمال ، ويدخل في ذلك ماء البئر القليل والناقة  
الهزيلة . يضاف إلى هذا المعنى هلل النساج الثوب وثوب هلل .

ويقال أن بحر الهلالي أخذ من هذه المعاني . . فقد ظهر على الوجود بعد خفاء  
وهو بحر نقي من البحور الصافية في الشعر النبطي يستخدم للتعبير عن البادية التي

يهلل البعير فيها ويستقوس من الهزال . والشعر النبطي بعامة هو ديوان البادية وهو ينسب لبني هلال أصحاب التفرية فهم أول من ابتكر قول الشعر على هذا البحر . . وهذا البحر هو أصل الشعر النبطي في بداية ظهوره حين نقله الرواة . والقائد التي قيلت على هذا البحر وصلت إلينا عن طريق بني هلال الذين جاهدوا بهذا اللون من الفن بعد أن توارى زمناً ليمثل أدب القبيلة على المستوى المحلي . والمعروف الآن لدى شعراء النبط أن أقدم ما وصلنا من الشعر النبطي نظم على هذا البحر فهو يمثل الأصالة بالنسبة للشعر النبطي . ولهذا البحر ميزاته عند الشعراء فهو بحر طويل تستوعب شطراته المعاني التي يريد الشاعر التعبير عنها، وهو يكتب على قافية واحدة في نهاية العجز .

### طريقة النظم :

للبحر الهلالي طرق متعددة ينظم عليها ونذكرها هنا بالتفصيل :

النظم على الطريقة القديمة كقول علياء الهلالية :

أبا زيد تنساني وتنسى جماعلي	الله و أكبر يانكور الجماعل
أبا زيد تنسى يوم ترشح لذبلي	كما يرشح العطشان باقي البلايل
أبا زيد لوان النسا تركب النضا	جيتك على عوصا من الهجن حايل

ويقول أبو زيد الهلالي من قصيدة له :

أبا العلا قد بي مع الدرب ناقتي	بحسناك واللا ناد لي من يقودها
يقولون لي عليا نشاش دقاقة	وانا قول رويان من النفي عودها
فقلو لطراد الهوى يطرد الهوى	بالاجهاد عنها لايرده حسودها

شعراء المرحلة التي تلي بني هلال ساروا على نهجهم بطريقة نظمهم ولم يدخلوا على هذا البحر أي تطوير إلا في بعض المعاني والأغراض بتطوير طفيف لا يكاد يذكر إلا أن النظم سار كما هو حتى ظهر راشد الخلاوي الشاعر الفلكي المشهور عند شعراء النبط

فنقل الشعر النبطي نقلة كبيرة وأضاف إلى أغراضه أغراضاً جديدة وهذب طريقة النظم  
بعض الشيء وحرص على الوزن كقوله في قصيدة من مطولاته :

والرزق مبسوط ومغني وعائيل	الكون مكفول والأرزاق قسمة
فاقرا كتاب الله واحفظ رسايل	وان جاك شك أو نوى القلب ريبة
ولا من محروم للأرزاء جايل	فلا من معنا نال من فوق حظه
كفا ساعي الساعي ومن بالبطايل	فسبحان من لا قسط ينسى لذره
وترتاب بالخلق والله قايل	فلا دابة إلا وعلى الله رزقها
مغبون لو يعطي مثلها مثايل	ومن كانت الدنيا من الله حظه
والملك من هذا اللي ذاك زايل	والمال عده كالرديف المحول

وقد ظهرت القصيدة الهلالية على صورتها الحالية التي هي في عصرنا الحاضر، إلا  
أن الخلاوي قد كرر القواني وإن كان تكرر القافية مسموح بالشعر العربي بعد البيت  
السابع إلا أنه غير مقبول في الشعر النبطي وبعد ظاهرة ضعف بالقصيدة تسجل على  
الشاعر إلا أن ذلك يغفر للخلاوي نظراً لإطالته بالقصائد والتي قد تصل إلى أكثر من ألف  
بيت للقصيدة الواحدة .

وجاء من جاء بعد الخلاوي فنظم الشعر الهلالي فأخذ الهلالي نصيب الأسد في  
اهتمامات شعراء النبط وهذب قوافيه بالمد واستعمال الحروف المتحركة بدلاً من الساكنة  
في نهاية كل بيت كقول بركات الشريف :

وجسم دنيّف زايد الهم شاعبه	عفا الله عين للإغضا محاربة
قد هل ما بين النظيرين ساكبه	أسهر إليانام المعافا ومدمعي
لصديق شفيق صافيات مذهبه	وقد قلت لما باح صدري ولج بي
شرواك ما يرضا هوان لصاحبه	دع العذل عني يانصحي وخلصني
والارزاق بيد اللي جزال وهابيه	فسي كل دار للرجسا معيشة
ولا قولت بركات قد هان جانبه	اخترت بعد الدار في نازح المدا

شهرت عن الزهدا وهي لي فضيه ولا يمنع المخلوق ما لله كاتبه

ونلاحظ أن الشاعر في البيت الأول من القصيدة ربط شطرتي البيت بقافية واحدة وأهمل قافية الصدر في بقية القصيدة واعتمد قافية العجز فقط وهو ما يسمى بالتصريح وهذا ما سار عليه نظم الهلالي حتى الآن . وبعد أن كانت القافية تقف على حرفين فقط في نهاية آخر كلمة بالعجز اعتمد جل شعراء النبط ثلاثة أحرف في نهاية الكلمة حتى وقتنا الحاضر .

لم يحذ حذو الشاعر بركات الشريف كل الشعراء في عصره فقد استمر بعضهم ينظم الهلالي على نفس الطريقة الهلالية وهي ما تسمى بالطريقة القديمة فاستمر النظم على الطريقة الهلالية يسير في خط متواز مع ما دخل في هذا البحر من تطور أحدثه بعض الشعراء وتبعهم من تبعهم فيه .

## مصادر النبطي

في مرحلة انتقال كل أمة من أطوار الثقافة الشفاهية إلى أطوار الثقافة الكتابية يجب الحرص على تدوين ما يمكنها تدوينه من موروثات العصور الشفهية . وقد تبدأ هذه العملية بجمع النصوص العارية من الشروح والحواشي . وكلما تقدم الزمن وارتخت الروابط بين ثقافة الماضي وثقافة الحاضر ازدادت الحاجة لتفسير النصوص والتعليق عليها وتوفير كل ما يمكن توفيره من معلومات تمنح القارئ الخلفية اللغوية والثقافية اللازمة لفهم النصوص وتمثلها واستحضار الأجواء التي كانت تؤدي فيها والوظائف التي كانت تؤديها . وشيئاً فشيئاً ينمو هذا الاهتمام ويتعرع ويصبح عملاً متخصصاً له فروع المتشعبة وله أطره النظرية وضوابطه المنهجية .

ومع تراكم المادة العلمية على مرور الزمن يصح حصرها وفرضها وتقييمها والتأريخ لها أمراً ملحاً حتى يمكن السيطرة عليها والاستفادة منها والتعامل معها تماماً رشيداً . هنا يقفز مستوى الخطاب من الحديث عن المادة الأدبية الشفهية نفسها إلى الحديث عن بيبليوجرافية المادة، أي الأعمال والجهود العلمية التي بذلت لجمع المادة الأدبية ودراساتها . هذا المستوى من الخطاب يعنى بحصر وتقييم الأدوات العلمية التي يتوسل

بها الباحث والمفاتيح التي يحتاج إليها للولوج إلى ميدان الأدب الشفهي وفهم مادته .  
هذه الأدوات والمفاتيح هي ما نسميه المصادر والمراجع ، أو البيبليوجرافيا .

## المصادر العربية

كان للمرحوم محمد بن عبد الله بن بليهد فضل الريادة في التنبيه إلى أهمية الالتفات إلى الشعر النبطي والاستفادة منه في الدراسات التاريخية والجغرافية . يقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل :

وكتاب الشيخ ابن بليهد كتاب رائد إلا أنه كحسب الشعر مأكول ومذموم .

ولقد مني بكثير من الجحدان والتنكر من قبل المختصين لا يكادون يذكرونه إلا متعقبين، وما وجدوا له من صالح دفنوا ١١

فالفصل الجيد الذي كتبه عن المقارنة بين الشعر العامي والشعر الفصح تناهيه الدارسون ولم يعمه إليه أحد منهم كابن خميس والزائل والكمالي .

وكلامه عن تموج القبائل في نجد أخذ في وضح النهار ولم يسند إليه كلمة . وأغلب أصحاب المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية لا يذكرونه إلا متعقبين، ولم يتركوا الرجل وشواهد من الشعر العامي بل أغاروا عليها .

والفصل الذي كتبه الشيخ في المجاز عن تموج القبائل إنما هو تلخيص جيد لما كتبه ابن بليهد . (ابن عقيل ١٩٨٦م، ج ٣، ص ١٣٧-١٣٨ .

وكان ابن بليهد أول من تنبه إلى توظيف الشعر النبطي كأحد المصادر المهمة في الأبحاث التاريخية والجغرافية المتعلقة بجزيرة العرب وتقفي أثره في ذلك الشيخ عبد الله بن خميس والشيخ محمد العبودي والشيخ سعد بن جنيديل في الأجزاء التي ألفوها من المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية والذي نشرته دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . والشيخ ابن بليهد أول من عقد مقارنة بين الشعر النبطي والشعر العربي

استغرقت اثنتين وعشرين صفحة بين فيها أوجه الشبه والارتباط بينهما . (١٣٩٢هـ، ج٢، ص ١٨٩-٢١٠) .

ومن أمتع ما كتبه ابن بليهد وأعظمه فائدة ما ذكره عن مناخات عتبية ومطير وقحطان في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وعن عادات العرب وقوانينهم في السلم والحرب وعن تموجات القبائل في نجد منذ أواخر القرن التاسع الهجري . (١٣٩٢هـ، ج٢، ص ١١١-١٣٢) . وقد عول الكثير من الرواة والمؤرخين فيما بعد على النصوص والشذرات التي أوردها ابن بليهد .

وتزامن مع ظهور الطبعة الأولى من صحيح الأخبار ظهور الديوان الذي جمعه خالد الفرج ونشره تحت عنوان "ديوان النبط : مجموعة من الشعر العامي في نجد" . ويعد هذا الديوان مثلاً نموذجياً في جودة التصنيف والتبويب والشرح والتعليق وحسن الاختيار، وإن كان يغفل ذكر المناسبات التي قيلت فيها القصائد . أما مقدمة الديوان فإنها علامة بارزة على طريق البحث والتحقيق في مجال الشعر النبطي وإضافة حقيقية إلى ما جاء به ابن بليهد . وتتضمن هذه المقدمة الوافية عدداً من الآراء التي تلقفها المتأخرون فاقتبسوها ونموها وإن كان البعض منهم لم يكلف نفسه عناء الاعتراف بفضل الفرج وسبقه . أما مجموعة عبد الله بن خالد الحاتم "خيار ما يلتقط من الشعر النبط" فإنها تتميز باحتوائها على بعض النماذج من الشعر النبطي القديم . ومن المجاميع التي تجدر الإشارة إليها لاحتوائها على قصائد ترجع إلى العصور الفاتئة مجموعة عبد الله اللويحان "روائع من الشعر النبطي" ومجموعة مسعود بن سند بن سيحان الرشيدى "التحفة الرشيدية في الأشعار النبطية" .

أما في مجال الدراسات المتخصصة فإن كتاب الشيخ عبد الله بن خميس "الأدب الشعبي في جزيرة العرب" يظل مدخلاً جيداً وعملاً متميزاً في هذا المضمار لا غنى للباحث الجاد عنه . ولابن خميس أعمال أخرى جلييلة بذل فيها جهداً مشكوراً في تدوين وتوثيق قصائد من الشعر النبطي مثل كتابه عن "الخلاوي" وكتابته عن "أشعار العرضة" وكتابته "أحاديث السمر" . أما كتاب شفيق الكمالي "الشعر عند البدو" فإنه يتضمن فوائد جمة وإضاءات لم يسبق إليها ويعتبر رافداً جيداً ومتمماً لكتاب ابن خميس "الأدب الشعبي في جزيرة العرب" . ومن الدراسات الشمولية المستفيضة عن الشعر النبطي، وخصوصاً في

دولة الإمارات العربية ومنطقة الخليج، الدراسة التي تقدم بها الدكتور غسان حسن أحمد الحسن لنيل درجة الدكتوراة تحت عنوان "الشعر النبطي في منطقة الخليج والجزيرة العربية"، ثم قام المجمع الثقافي في دولة الإمارات العربية بطباعة الدراسة في كتاب يتألف من جزأين كبيرين . وتتطرق هذه الدراسة بالوصف والتحليل وبشكل مفصل وموثق إلى العديد من قضايا الشكل والمضمون في الشعر النبطي . هذا وقد صدر لنا عن دار الساقبي بلندن كتاب يربو على ٦٠٠ صفحة بعنوان "الشعر النبطي : ذاقة الشعب وسلطة النص" يتناول بدايات الشعر النبطي وجذوره الفصيحة ويحتوي على كم ضخم من القصائد النبطية القديمة التي لم يسبق نشرها .

وقد صدرت للشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل سلسلة تاريخ نجد في عصور العامية "ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد" من خمسة أجزاء، وتتجلى فيها قدرة ابن عقيل وجلده على البحث والتقصي . كما يعمل ابن عقيل كثيراً على الشعر النبطي في سلسلة دراسات ونصوص عن البيوتات العربية الحديثة والتي تقع في أربعة أجزاء . وساهم ابن عقيل في إعداد كتاب قيم عن أشعار الدواسر يحتوي على أشعار تاريخية وكتب له مقدمة عظيمة الفائدة، والكتاب من جمع محبوب بن سعد بن مدوي الفصام الدوسري . وأعمال ابن عقيل هي البداية الحقيقية للبحث العلمي المنظم والجاد في قضايا الشعر النبطي . ومن المحققين البارزين الذين يعتمد عليهم، وخصوصاً بالنسبة لشعراء عالية نجد، الشيخ سعد بن جنيديل وله عدة مؤلفات قيمة في هذا الموضوع . وله بالإضافة إلى الكتب المطبوعة تحقيقات ومشاركات إعلامية بارزة . وتعد مؤلفات الشيخ سعد من المصادر الأولية في مجال الدراسات الشعبية بشكل عام .

ومن الدراسات العلمية الرصينة كتاب الدكتور عبد الله العتيبي "دراسات في الشعر الشعبي الكويتي" . والكتاب عبارة عن مقالات في موضوع الشعر الشعبي كتبها الدكتور العتيبي في فترات متفاوتة ونشرها في أماكن متفرقة ثم جمعها فيما بعد ونشرها في هذا الكتاب . ولا يفوتني أن أنوه بكتاب الدكتور عبد الله الفوزان عن حميدان الشويمر، وكذلك كتاب الأستاذ محمد بن عبد الله الحمدان عن حميدان الشويمر أيضاً .

ومن المجاميع المثالية في جودة الاختيار وجودة الطباعة والإفاضة في الشرح الجزء الأول من مجموعة شاعرات من البداية الذي أعده عبد الله بن رداً . ومما يضيف إلى



أهمية هذا الديوان المقدمة الممتعة التي كتبها الشيخ حمد الجاسر يرد فيها على منير العجلاني ويبين أهمية دراسة الشعر النبطي كمصدر تاريخي وجنرافي . وفي الدواوين التي نشرها منديل الفهيد في سلسلته "من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية" يجد القارئ نماذج جيدة من أشعار شيوخ البادية وفرسانهم . ولنديل باع طولي في الرواية وجهود مشكورة في التدوين والتوثيق غير أنه يعتمد أحياناً إلى تعديل صياغة بعض القصائد التي تحتوي على معانٍ لا تتلاءم مع الوضع السائد . وما يؤخذ على منديل أيضاً عدم عنايته بدواوينه من حيث الطباعة والإخراج وهي عارية من الشروح والتعليقات ولا يكاد القارئ يفقه شيئاً من المقدمات الركيكة التي يضعها منديل لقصائده . وربما شارك ابن عقيل منديل اللوم في ذلك حيث تقع على عاتقه مسؤولية الإشراف والإعداد لبعض هذه المجموعات .

أما كتاب "أبطال من الصحراء" للمرحوم محمد أحمد السديري فإنه لا يجارى في الجودة والإتقان، لا من حيث الطباعة والإخراج ولا من حيث ما يحتويه من قصص وأشعار مليئة بمعاني الغروسية ومواقف البطولة والرجولة . وكتاب "قصة وأبيات" الذي أعده إبراهيم اليوسف يحظى بأهمية خاصة نظراً لطبيعة المادة التي يتضمنها ولأن الدكتور عبد العزيز الخويطر كتب له مقدمة ضافية هي عبارة عن دراسة نقدية فنية تبين مواطن جناليات الشعر النبطي . وكتب الخويطر مقدمة مماثلة لديوان شعراء عنيزة الشعبين الذي أعده عبد الرحمن العقيل وسليمان الهطلاني . وهاتان المقدمتان من أجمل ما كتب عن الشعر النبطي من الناحية الأدبية .

ومن المساهمات التي تستحق الإشادة مجموعة فهد الرشيد "شعراء الرمن النبطيون" التي تحتوي على مجموعة لا بأس بها من أشعار أهل الرمن . ونشر الشاعر سليمان بن محمد النقيدان ديواناً يحمل عنوان "من شعراء بريدة" بالإضافة إلى الأشعار أخباراً عن بعض شعراء بريدة مثل محمد العلي العرفج والعوني لم تنشر من قبل . كما أصدر حمود النافع مجموعة ضخمة تقع في عدة أجزاء من شعر شعراء الزلفي . وظهرت أخيراً سلسلة بعنوان "الشعر النبطي في وادي الفقي" أعدها أحمد بن عبد الله الدامغ وتتضمن أشعاراً لشعراء من روضة سدير . كما أعد سعود بن عبد الرحمن اليوسف كتاباً عن شعراء أشيقر سماه "أشيقر والشعر العامي" . ويحمل ديوان أشعار قديمة تنشر لأول مرة الذي أصدره

فايز موسى الحربي عدداً من القصائد التي لم يسبق نشرها . ومن دواوين القبائل ديوان صور وأشعار بني رشيد جمعه ناصر بن عياضة بن عجوين الرشيدي ويحتوي على العديد من القصص والقصائد الجيدة والشيقة . ويجد القارئ مزيداً من أشعار وسوائف بني رشيد في الدواوين التي أعدها كل من نجا مفلح بنيان الرشيدي وحباب الرشيدي . كما نشر محمد بن دخيل العصيمي ديواناً ضخماً يقع في جزأين جمع فيه ما استطاع جمعه من أشعار عتيبة المتفرقة في ثنايا المصادر المنشورة . ومن له اهتمام خاص بتاريخ قبيلة عنزة وأخبارها وأنسابها وأدبها وأشهر مشايخها وفرسانها وشعرائها سوف يجد بغيته في مؤلفات عبد الله بن عمار العنزي . ومن لهم إسهامات ملحوظة في مجال المأثورات الشعبية وتحقيق نصوص الشعر الشعبي ودراساتها عبد الرحمن بن زيد السويداء، وخصوصاً سلسلته من "شعراء الجبل العاميين" التي تتألف من ثلاثة أجزاء . تحتوي أجزاء هذه السلسلة على أشعار من منطقة حائل من أهمهم خلف أبو زويد وشايع بن مرداس المالي وعدوان الهرييد . وتتميز أعمال السويداء بجودة الاختيار والشروح الوافية . ولأستاذ أحمد فهد العلي العريفي مجموعة من المصنفات المفيدة مثل كتابه عن "رميزان بن غشام" وكتابته عن "متشابه القصائد ومعجم الشعراء" . وفي كتابه بركات الشريف استطاع العريفي عن طريق البحث والتقصي جلاء الغموض التاريخي الذي كان يحيط بشخصية هذا الأمير الذي يحتل مكانة بارزة بين شعراء النبط .

أما من تروق له المقطوعات الغنائية فسوف يستمتع بقراءة المجموعات التي أعدها محمد الشعيري وعبد الله الدويش ومحمد الحمدان . ومن الألوان المتميزة في الشعر النبطي ما يسمى شعر المحاورة أو شعر الرد أو القلطة . وهناك عدد من الدواوين التي تحتوي على نماذج جيدة من شعر الألفة مثل ديوان علي أبو ماجد وديوان أحمد الناصر الشايع وديوان مطلق بن حميد الثبتي وديوان علي القري . وقد أعد مبارك عمران السبيعي ديواناً من جزأين ضمنه عينات مختارة من شعر القلطة .

وببقى هناك العديد من الدواوين التي تحتوي على قصص وقصائد نبطية جيدة لكنها تعاني من سوء الطباعة وقلة العناية وعدم الدقة في الرواية مع التحيز الواضح لقبيلة جامع الديوان . نذكر على سبيل المثال المجموعات التي نشرها شاهر بن محسن الأصقة وفهد الفردوس والأسمر الجويمان وابن عمار وغيرهم ممن سيرد ذكرهم في القائمة

البيبلوجرافية مثل مطلق بن محمد البادي البراق العتيبي ومزيد السريحي وصالح بن رباح المطلق وبجاد لهاب الجش ومحمد العزب ومشعل الجبوري وعبد العزيز بن سعد المطيري . هذا ولن نتطرق لدواوين الشعراء المعاصرين لأنها خارج نطاق البحث ولأنها أكثر من أن نحيط بها .

ومصادر دراسة الشعر النبطي لا تقتصر فقط على الدواوين الشعرية أو الكتب والدراسات التي كتبت تحديداً عن قضايا الشعر النبطي . بل إن طبيعة الشعر النبطي ومضامينه وأغراضه ووظائفه الاجتماعية والسياسية تتطلب من الباحث الرجوع إلى مصادر تاريخية وجغرافية وإلى كتب اللغة والألفاظ العامية وكل ما كتب عن الأدب الشعبي بجميع أجناسه وعن الثقافة الشعبية والحياة التقليدية وحياة البادية في العصور الفائتة وفي مختلف مناطق الجزيرة العربية . وتشكل هذه المصادر على اختلافها أدوات بحثية ضرورية تساعد الباحث على التعمق في إدراك مضامين القصيدة النبطية وتفسيرها وتحليلها . وهناك مصادر هي بمثابة نوافذ يطل منها الباحث على الماضي ليستجلي صورته ويتمثله تمثلاً صادقاً يعينه على فهم الشعر النبطي الذي يستمد صورته وأخيلته من ذلك الواقع الذي ذهب مع الريح . والشعر النبطي رصد لواقع الحياة في الماضي بجميع تجلياتها ومختلف مظاهرها ، وكلما تعمقنا في تلك الحياة الدارسة وأحطنا علماً بجوانبها تعمق فهمنا للشعر النبطي . فأنت مثلاً حينما تقرأ أبياتاً غزلية فلربما تصادف مسميات لأنواع من الحلبي والأزياء وأدوات الزينة التي كانت تستخدمها النساء في الماضي لكنها انقرضت وقل من يعرف عنها شيئاً في وقتنا هذا .

وفي استطرادات التوجد والحنين تصادف مفردات تتعلق بالسائبة وأدواتها أو وسائل الغوص في البحر أو غيرها من الممارسات التي لم تعد موجودة الآن . والشاعر حينما يقطع الغلوات والبراري على راحلته أو يبعث مندوباً ليبلغ رسالته إلى الشخص المعني ترد في هذه الرحلة أسماء موارد ومواقع قل من يعرفها من غير المختصين . ومن هنا فإن الباحث والناقد يلزمه توسيع مداركه وتعميق ثقافته والاطلاع على كل ما له صلة بحياة الأسلاف في كل منحي من مناحيها بحيث لا تفوته شاردة ولا واردة .

من المصادر اللغوية المفيدة في فهم معاني ألفاظ الشعر النبطي كتاب "السويداء فصيح العامي في شمال نجد" وكتاب الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل "من غريب الألفاظ

المستعملة في قلب جزيرة العرب" وكتاب عبد الكريم الحقييل "ألفاظ دارجة ومدلولاتها في الجزيرة العربية". ولا يفوتني أن أنبه هنا إلى أن الباحث سوف يفيد فائدة عظيمة بالرجوع إلى أمهات المعاجم العربية مثل "الصحاح" للجوهري و "لسان العرب المحيط" لابن منظور و "تاج المروس" للزبيدي و "المخصص والمحكم والمحيط الأعظم" لابن سيده وذلك لأن مفردات الشعر النبطي في غالبيتها مفردات عربية فصيحة صحيحة . كما أن فهم الشعر الجاهلي وتذوقه واستشفاف معانيه وصوره والانكباب على ما كتب فيه من دراسات نقدية وأبحاث لغوية يساعد كثيراً على فهم الشعر النبطي والتبحر فيه، والعكس صحيح أيضاً .

ومن المصادر التي لا غنى للباحث عنها كتاب السويداء "نجد في الأمس القريب" وأعماله الأخرى، وكتاب القويمعي "تراث الأجداد"، وكتاب "الساني والسانية" لابن جنيدل، وكذلك الكتيبات التي تصدر عن مهرجان الجنادرية السنوي عن الحلي والأزياء الشعبية وغير ذلك من مظاهر الحياة التقليدية . وسوف يجد القارئ شذرات وإضاءات ممتعة عن حياة الأسلاف في سلسلة "أي بُني" "مقارنة بين ماضيها وحاضرنا" التي أصدرها الدكتور عبد العزيز الخويطر في عدة أجزاء . كما صدر مؤخراً عن دار الدائرة للنشر والتوثيق عمل موسوعي من اثني عشر مجلداً ضخماً عنوانه "الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية" يتناول مختلف جوانب الحياة التقليدية في المملكة .

ونظراً لارتباط الشعر النبطي بالتاريخ السياسي بوجه عام والتاريخ القبلي والإقليمي بوجه خاص فإنه لا مندوحة للباحث من الإلمام بالمصادر التي تتناول هذه المواضيع مثل "تاريخ ابن غنام" و "تاريخ ابن بشر" و "تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد" لمحمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر . ويحتوي كتاب خير الدين الزركلي "شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز" على بعض المعلومات القيمة عن فرسان بعض القبائل ومشايخها وعاداتها . ومن المصادر التاريخية المهمة "علماء نجد خلال ستة قرون" الذي ألفه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام . كما قام الشيخ البسام بجمع المخطوطات التاريخية المهمة المتعلقة بنجد وأصدرها في عشرة مجلدات تحت عنوان "خزانة التواريخ النجدية" .

وبينما يتحفظ الكثيرون من مؤرخي نجد التقليديين على توظيف الشعر النبطي كمادة تاريخية نلاحظ أن مؤرخي القصيم لا يترددون في ذلك مثل ابن بسام في مخطوطه "تحفة المشتاق" ومقبل الذكير في مخطوطه "مطالع السعود". ومن المتأخرين هناك الدكتور محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان في كتابه "الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية" والدكتور عبد الله العثيمين في كتابه "نشأة إمارة آل رشيد". وللأخير مقالة قيمة نشرها في مجلة العرب بعنوان "الشعر النبطي كمصدر لتاريخ نجد". ومن المصادر التاريخية المهمة التي هي أقرب إلى مفهوم التاريخ الشعبي الشفهي مخطوطة عن "حروب القصيم" للشاعر إبراهيم القاضي، ابن الشاعر المشهور محمد العبد الله القاضي، ومخطوطة عن تاريخ نجد عنوانها "النجم اللامع للنوادر جامع" أملاها محمد العلي العبيد من أهالي عنيزة. هاتان المخطوطتان تنحيان في السرد التاريخي منحىً شفهيًا قريباً من أسلوب السوالف بما يتخللها من قصائد ترد كشواهد تاريخية وكجزء متمم للسرد الثري الذي هو أشبه ما يكون بتفسير للأبيات الشعرية ومقدمة للقصائد تعطي المستمع الخلفية اللازمة لفهم الأبيات وتفصل الأحداث الباعثة لها أو المترتبة عليها. ويحتوي تاريخ العبيد على تفاصيل إثنوجرافية عن حياة البادية وعن أنساب القبائل وحروبها. ومثل هذا، النبذة التي أملاها ضاري بن فهد الرشيد على وديع البستاني حينما كان يرقد مريضاً في أحد مستشفيات الهند ونشرتها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر تحت عنوان "نبذة تاريخية عن نجد" أملاها الأمير ضاري بن فهد الرشيد. ويتضمن كتاب ابن بليهد "صحيح الأخبار" على نبذ في غاية الطرافة والأهمية عن الأوضاع القبلية في نجد قبل قيام الدولة السعودية الحديثة.

أما فيما يتعلق بالتاريخ القبلي والأنساب فهناك كتابات الشيخ حمد الجاسر مثل معجم قبائل المملكة العربية السعودية ومثل جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد.

وهناك كتاب "المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب" لعبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري وكتابات عاتق البلادي مثل "نسب حرب" ومثل "معجم قبائل الحجاز". هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب التي تتفاوت في جودتها وموضوعيتها ودقة معلوماتها مثل ما كتبه ابن عبار العنزي عن "أنساب عنزة" وكتاب "كنز الأنساب ومجمع الآداب" لحمد الحقييل وكتاب الدكتور علي شواخ إسحق الشعبي "القشع من كبريات القبائل

العربية" دراسة تاريخية اجتماعية أدبية وكتاب عبد الكريم بن عبد الله المنيف الوهبي "بنو خالد وعلاقتهم بنجد" وكتاب فهد المحمد الربيعان "العريانات" وكتاب حمد الناصر آل وهيب "معجم أسر بني تميم في الحديث والقديم" وكتاب عبد الله بن علي بن صقية "بنو تميم في بلاد الجبلين". وهناك كتيب صغير في حجمه عظيم في فائدته ويحتوي على عدد من القصائد النبطية الجيدة أصدره عبد الرحمن العبد الكريم العبيد بعنوان "قبيلة العوازم : دراسة عن أصلها ومجتمعها وديارها". ولا يفوتنا أن نذكر القارئ بسلسلة ابن عقيل "دراسات ونصوص عن البيوتات العربية الحديثة" والتي مر ذكرها . ومن المصادر المفيدة فيما يتعلق بقبائل عنزة وشمر وقبائل شمال الجزيرة عموماً كتاب عباس العزاوي "عشائر العراق" وكتاب أحمد وصفي زكريا "عشائر الشام". أما فيما يتعلق بالجانب الجغرافي فلن يجد الباحث خيراً من "صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار" للشيخ ابن بليهد وسلسلة "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" التي تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . ومن الكتب التي تهمننا بوجه خاص في هذه السلسلة كتاب العبودي عن "القصيم" وابن جنيد عن "عالية نجد" وابن خميس عن "اليمامة". ولابن خميس مؤلفات أخرى عن "أودية الجزيرة وجبالها" وعن "اليمامة" سنثبتها في قائمة المصادر . ولابن جنيد كتاب عن "الجوف" فيه استشهادات من الأدب الشعبي والشعر النبطي . وهناك سلسلة "هذه بلادنا" التي تصدر عن الرئاسة العامة لرعاية الشباب، بالإضافة إلى كتب أخرى تخص بعض البلدان مثل كتاب ابن خميس عن "الدرعية" والدكتور محمد بن سعد الشويعر عن "شعراء" وغيرها كثير مما لا يخلو من بعض الفائدة، وإن كانت بعض هذه الكتب تتسم بالاختصار الشديد والضحالة، بل والإسفاف أحياناً .

ولا تخلو كتب الرحلات من الفائدة وخصوصاً في تعريف بعض المواقع والموارد وتحركات القبائل وتفرعاتها وديارها وعاداتها مثل "مرآة جزيرة العرب" لأيوب صبري باشا و"الرحلة الحجازية" لمحمد ليبب البتنوني وكتابات إبراهيم المسلم وعبد العزيز عبد الغني إبراهيم عن العقيلات .

والباحث المتعمق في قضايا الشعر النبطي لابد وأن يقوده البحث إلى جوانب أخرى من جوانب أدبنا الشعبي على اختلاف أجناسه وكذلك الأدب الشعبي في مختلف مناطق

المملكة . ويمكننا أن نشير في هذا الصدد إلى الأعمال القيمة التي أتحفنا بها الأساتذة الأفاضل عبد الكريم الجهيمان ومحمد بن ناصر العبودي وفهد المارك ومحمد بن أحمد العقيلي وعاتق بن غيث البلادي وغيرهم ممن سوف يرد ذكرهم في قائمة المصادر .

ونظراً لتموجات القبائل وحركات الهجرة السكانية والتمازج الاجتماعي وعمليات التبادل الثقافي المكثفة بين وسط الجزيرة والمناطق المحيطة بها شرقاً وشمالاً، فإن هناك إصدارات تتناول الأدب الشعبي والثقافة التقليدية في بلدان الخليج العربي والعراق والشام يمكن أن يستفيد منها الباحث في قضايا الشعر النبطي . ويستحيل حصر مثل هذه الأعمال هنا لكنني أذكر من ضمن الكتب كتاب عبد الرحمن الحوراني "التراث الشعبي في حوران" وكتاب روكس بن زائد العريزي "قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية" وكتب أحمد عويدي العبادي عن القضاء البدوي . ولا يفوتني أن أشيد بكتابات الأستاذ سيف مرزوق الشملان من الكويت وخصوصاً ما يتعلق بموضوع الغوص وكذلك كتابات أيوب حسين الأيوب وخصوصاً كتابه "مختارات شعبية من اللهجة الكويتية" .

ومن الكتب المتميزة والتي بذل فيها جهد واضح كتاب ناصر حسين العبودي "الأزياء الشعبية الرجالية في دولة الإمارات وسلطنة عمان" وكتاب فجلة العزي "كنوز متحف قطر الوطني" وخصوصاً الجزء الثاني الذي يتحدث عن الحلبي الذهبية والفضية . وصدرت عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية في الدوحة العديد من الأعمال التي يمكن أن يفيد منها الباحث، وأخص بالذكر مجلة المأثورات الشعبية . وبالإضافة إلى هذه المجلة هناك مجلات أخرى سوف يعثر فيها الباحث على مقالات تفيده في مجال الأدب الشعبي والثقافة التقليدية مثل مجلة "لغة العرب" ومجلة "التراث الشعبي" العراقيتين ومجلة "العرب" التي يصدرها الشيخ حمد الجاسر .

## المصادر الأجنبية

وعن جهود المستشرقين في مجال جمع الشعر النبطي ودراسته، وهذا مصدر لا يستهان به كماً وكيفاً . وأعمال المستشرقين في هذا الميدان يمتزج فيها الجمع والشرح مع الدراسات الأدبية واللغوية التي تشكل ضرورياً الرعا من الدراسات الإنشولوجية بنهجها

الأعم . هذا يتطلب منا قدرأ من التوسع والانفتاح في بحثنا عن المصادر بحيث لا تقتصر على تلك التي تعنى بتدوين نصوص الشعر فقط بل علينا أن ننتقي كل ما يتعلق بلهجات الجزيرة وحياة البادية وكتب الرحلات . مثل هذه المصادر وإن كان أصحابها قد قصدوا منها أساساً أن تكون أبحاثاً في علم اللهجات العربية أو في اللغات السامية أو في الاستكشافات الجغرافية وهلم جرا . . إلا أنها لا تخلو أحياناً من بعض القصائد والأبيات النبطية و "السوالف" التي ترد كشواهد أو كمادة خام . هذا بالإضافة إلى أن مثل هذه المصادر في مجملها وعلى عمومها تشكل أدوات البحث الأساسية التي لا غنى للباحث الجاد عنها . والحقيقة أن المستشرقين لهم إسهامات سباقة وجهود لا يستهان بها فيما يتعلق بدراسة الشعر النبطي ولهجات الجزيرة العربية ، وخصوصاً بين أبناء البادية وفي شمال الجزيرة تحديداً . وحيث أن معظم هذه المصادر الأجنبية ، وخصوصاً القديم منها وما هو مكتوب بلغات أجنبية غير الإنجليزية ، غير متاحة للكثيرين من المهتمين بالشعر النبطي في بلادنا فإننا سوف نتوسع بعض الشيء في الحديث عما تتضمنه من نصوص وآراء .

أول من قام من المستشرقين بتدوين ودراسة نماذج من الشعر النبطي هو جورج أوجست والن Georg August Wallin الذي جمع بعض القصائد أثناء إقامته في منطقة الجوف عام ١٨٤٥م وهو في طريقه إلى حائل مروراً بجبه . ولد والن سنة ١٨١١م في وطنه فنلندا التي كانت آنذاك تحت سيطرة روسيا . وحيث أنه لم يكن يوجد بعد في فنلندا لغة وطنية نشأ والن كغيره من سكان مقاطعته يتكلم اللغة السويدية . وأهدى اهتماماً مبكراً ببلاد الشرق وشغفا بالصحراء وحياة البادية . وحصل على شيء من الدعم من جمعية الجغرافيين الملكية الروسية التي تأسست عام ١٩٤٥م في سانت بيترسبرج St. Petersburg ومن جمعية الجغرافيين الملكية في لندن . يعرف نجيب العفيفي والين في الجزء الثالث من كتابه "المستشرقون" قائلاً :

ولد في جزائر آلاند غربي فنلندا، وتعلم في كليتها وصنف كتاباً باللاتينية أسماء "أهم الفروق بين لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين" . وفي سنة ١٨٤١م قصد روسيا ، وتضلّع في العربية على الشيخ محمد عياد الطنطاوي في مدرسة الألسن، حتى آخر سنة ١٨٤٢م، ثم رحل إلى الشرق فطوف خلال ست سنوات بمصر وجزيرة العرب وبغداد



وأصبهان وبصرى ودمشق مقزياً بزي الهدو متطبعاً بطباعهم باسم عبد الولي - وقد نقشه على حجر قبره بحروف عربية - حاملاً حقبة مملوءة بالعقاير، فأحبته القبائل، ويسرت له دراسة عاداتها ولهجاتها، واستقصاء حالة بلادها الطبيعية والجغرافية، ثم سكن لندن (١٨٤٩-١٨٥٠)، واشترك في إعداد خريطة لبلاد العرب، وعين أستاذاً، فكان أول من استقل بكرسي لها فيها، ثم سمي أستاذاً للعربية في كلية هلسنكي، وأقبل عليه الطلاب، وأفادوا منه حتى وفاته .

نشرت دار Falcon-Oleander كتيباً صغيراً عنوانه *Travels in Arabia* (١٨٤٥-١٨٤٨م) يتضمن التقارير التي سبق أن نشرها والين عن رحلاته مع مقدمة كتبها M. Trauts & W.R. Mead تحتوي على بعض المعلومات البيوجرافية عن حياة والين . جاء في هذه المقدمة أن والين كتب في يناير ١٨٥١م بعد عودته من الجزيرة العربية حينما داهمه برد الشتاء القاسي في وطنه فنلندا يعبر عن حنينه إلى الصحراء : "كم أتوق الآن أكثر من أي وقت مضى أن أستبدل مناخ وطني الثقيل الوطأة والحياة المرهقة التي أنا مجبر عليها هنا (كأستاذ للعربية يدرس الطلاب مبادئ الهجاء) . . . طموحي في هذه الحياة أن أتمكن من العودة إلى الشرق وبالتحديد إلى الصحراء العربية .

يمكنني العودة هناك كرحالة أوروبي لأستكشف علمياً المناطق المجهولة في بلاد العرب وأقدم نتائج أبحاثي للدوائر الأكاديمية في العالم الغربي، وأخص بذلك الجمعيات العلمية في لندن . أو ربما أذهب إلى هناك للاستجمام والترويح عن النفس، للبحث عن ملاذ في فيافي الصحراء من بيئة أوروبا الخائقة، لأجد السلام وراحة البال بعيداً عن التفاهات والزيف والعجرفة التي اعتادها الغربيون، لأعيش بدوياً حراً ثم أموت وأدفن بين أبناء البادية الأحرار" . وفي رسالة أخرى وضح والين أهدافه والتي كان من ضمنها توثيق ودراسة الآداب والأعراف البدوية التي كان يرى أنها "مازلت تحكم حياة هؤلاء الباترياركيين patriarchal والتي لا تقل بأي حال في أهميتها وأصالتها عن القوانين التي كان يحتكم إليها قدماء الغاليين Gauls، بل حتى تلك التي سادت بين أجدادنا القوطيين Goths" . وفي ميله للغات الدارجة والآداب الشفهية كان والين متأثراً أيما تأثر بجهود زملائه من الأكاديميين والكتاب الفنلنديين الذين شعروا عن سواعدهم وجابوا أرياف فنلندا وسهوبها بحثاً عن الأغاني الشعبية والتي استطاع إلياس لونروت Elias

Lonrot فيما بعد أن يؤلف منها ملحمة الكاليفالا Kalevala . ولهذا كان والين يتطلع إلى جمع "أدب البادية الشعري المثير . . الذي لا ينضب ولا يجارى في ثرائه وجودته" . ويختم والين رسالته بهذه الفرضية التي يقول فيها "يبدو أن الطبيعة اختارت هؤلاء الأعراب الذين لم تحد فافتهم من إنسانيتهم وبساطتهم ليجددوا من وقت لآخر الدماء في عروق الشعوب غير المتحضرة أو الشعوب التي أصابها الوهن والتفسخ . من ناحية، نجد أن جذب أراضيهم وشرح مواردها يحميهم من الانحدار والانحلال الذي عادة ما تؤول إليه الأمم التي يتفشى فيها الغنى والنعيم . ومن ناحية أخرى نرى هذه الفاقة تدفع بهم للهجرة وترك بلادهم للبحث عن رغد العيش ويضخون تبعاً لذلك دماءً جديدة قوية فيمن يحلون بين ظهرانيهم" .

كان والين مضطراً للبحث عن جهات تمول رحلاته الاستكشافية إلى الشرق وبلاد العرب وخصوصاً الجمعيات الجغرافية الملكية في إنجلترا وروسيا . لكنه أيضاً كان شديد الحرص على أن لا يعرف الشرقيون عن هويته وأغراضه الحقيقية ومصدر تمويله حتى لا ينكشف أمره ويعرض نفسه ومشاريعه للخطر إذا ما شك المسؤولون في بلاد الشرق أن مهمته وأهدافه لها أبعاد سياسية . فقد كتب إلى الدكتور نورتن شو Norton Shaw ، أمين سر الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، يحذره من إعطاء الأحاديث والإدلاء بالتصريحات عن رحلاته ومخططاته "لأنه لو حملت الأخبار أنني أبشر رحلتي محفوفاً بهذه الرعاية العظيمة من إنجلترا وروسيا فمن المحتمل جداً أنه حالاً ما أصل إلى القاهرة سيكون لي شرف تلقي دعوة من عباس باشا لأتناول معه فنجاناً من القهوة والذي ربما يكون آخر شيء يدرج في حلقي" .

أمضى والين السنتين الأخيرتين من حياته أستاذاً للغة العربية في جامعة هلسنكي وداهمته المنية سنة ١٨٥٢م وهو في سن الواحدة والأربعين ولم يتمكن من تحقيق طموحه في العودة إلى جزيرة العرب .

جمع والين عدداً من القصائد أثناء إقامته في منطقة الجوف عام ١٨٤٥م ونشرها تبعاً بترجماتها ودراسات عنها في العدد الخامس والسادس من مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft . نشر والين هذه القصائد خلال الفترة ١٨٥١-١٨٥٢م تحت عنوان "عينات لأنتولوجيا قصائد

عربية معاصرة جمعت من البادية" Probe au Seiner Anthologie Neu Arabischer Gesänge in der Wüste Gesammelt . تضمنت هذه العينات ثماني قصائد يعرض كل منها على النحو التالي . يبدأ بكتابة القصيدة بالأحرف العربية ثم يكتبها كتابة صوتية مستخدماً الرموز اللاتينية وبعد ذلك يترجمها إلى الألمانية ويقدم للترجمة بمعلومات عن الشاعر ومناسبة القصيدة وعن الظروف التي جمع فيها نص القصيدة والشخص الذي رواها له وينتهي عرضه بدراسة لغوية مفصلة .

وقد قام إمام المسجد الذي يدعوه والين "الخطيب الوهابي" بمساعدته في نسخ القصائد . ومن الواضح أن والين والإمام الذي كتب له القصائد غير متمرسين في التعامل مع الشعر النبطي وتذوقه ، فالقصائد التي دونها تعاني من خلل في الوزن وفي طريقة التدوين ويعاني بعضها من خلل في القافية ، وهذا يعود ، في أغلب الظن ، إلى عدم كفاءة الراوي سلمان الذي أخذ عنه والين هذه القصائد . وفي الأسطر التالية التي أستعرض فيها عمل والين سوف أعتمد إلى تعديل الأبيات التي أوردها من عمله وأكتبها حسب الرواية الصحيحة المتداولة بين رواة الشعر النبطي ونقاده المتمرسين أو حسب ما تقتضيه الرواية الصحيحة الواعية لهذا الشعر .

القصيدة الأولى أملاها الشاعر بنفسه على والين الذي ذكر أن اسمه مساعد وأشار إليه بأنه عبد من عبيد الجوف . حينما وصل والين إلى الجوف وجد لهذه القصيدة صدىً واسعاً ولاحظ كثرة ترددها على ألسنة الرواة في المجالس وتغنيهم بها على الرابة مما حدا به إلى البحث عن صاحبها لأخذها منه مباشرة . وصل والين الجوف بعد أن أحكم عبد الله بن رشيد ، أمير حائل قبضته عليها . وكانت قبل ذلك تتكون من أحياء بينها عدااء مستحكم وتعيش حالة خوف ونزاع لا ينقطع . ويتحدث والين في مقدمته لهذه القصيدة والتي تليها عن الوضع السياسي في الجوف . وهذه القصيدة التي تتألف من اثني عشر بيتاً قالها مساعد العبد من حي خذما يخاطب بها داره ويعلن تغانيه في الدفاع عنها . يقول مطلع القصيدة :

والله لو رادوك يادار ما أعطيك      ياكود مارد نازل للجزيرة

والقصيدة الثانية تتألف من اثني عشر بيتاً قالها سالم الموض من أهل الجوف يمدح عبد الله بن رشيد وأخاه عبيد على مساعدتهما لأهل حي خذما على أهل حي اللهمية .

وقد ذكر الشيخ سعد بن جنيد في كتابه عن الجوف (١٤٠١هـ، ص ١١٨-١١٩) طرفاً من أخبار هذا النزاع . يقول سالم في مطلع قصيدته :

ياراكب من عندنا فوق عرماس يشدا ظليم طالع الزول زایل

القصيدة الثالثة قالها نمر بن عدوان أمير قبيلة العدوان التي كانت تقطن نقرة الشام أو حوران يرثي زوجته وضحا من بني صخر . وأملاها على والين شخص يدعى سلمان من سكان حي خذما في الجوف والذي يصف والين بنيته بأنها قوية ويقول بأن صحته جيدة على الرغم من سنه التي تناهز الستين . وأكد سلمان لوالين أنه كان تلميذاً لنمر بن عدوان تعلم على يده قرص الشعر وأن نمر هو الذي شجعه على قول الشعر وأنه بعد ما حفظ الكثير من أشعار نمر بدأ شيئاً فشيئاً يقرص الشعر بنفسه ويدعي بأن لديه صندوق ملاء بقصائد نمر . ويذكر والين بأن وصوله إلى الجوف سنة ١٨٤٥م كان بعد وفاة نمر بسنوات قليلة . ويضيف بأن نمر كان شاعراً واسع الشهرة وأنه كان متعلماً وضيئاً لافي استخدام المراجع الأدبية والقواميس التي يستقي منها مفرداته الغريبة والجميلة التي يزين بها أشعاره وأنه يدخل في قصائده مفردات من اللغة الفارسية وغيرها من اللغات . (وأود هنا أن أسجل تحفظي على ما ذكره والين وأستبعد أن يكون نمر على هذه الدرجة من العلم ولربما يكون هذا جزءاً من النسيج الأسطوري الذي يحوكه الرواة منذ ذلك الحين حول شخصية نمر . بل إنني في ريبة من أمر هذا الراوي المسمى سلمان وأتردد في قبول ادعاءاته لأن القصائد التي رواها عنه والين، سواء كانت من إنتاجه هو أو من إنتاج "أستاذه" نمر ليست على المستوى المتوقع) . تتألف القصيدة التي أملاها سلمان على والين من ثمانية عشر بيتاً ومطلعها يقول :

يا خالقي بيجاه تسع وتمعين حفر وما بيهن نطق من لغات

والقصيدة التالية برواية سلمان لنمر أيضاً يسندها على ابنه حمود وبعث بها معه إلى وضحاء حينما غاضبته وتركته وذهبت إلى أهلها . ويقول والين في معرض حديثه عن وضحاء أنها من الأدب بحيث لا تدير ظهرها إلى نمر حينما تنصرف من عنده وإنما تمشي على الرواء حتى تتعدها وتبعد عنه . مجموع أبيات القصيدة سبعة أبيات ويقول مطلعها :

ياخمود اركب يم هاك القبيلة قل له ربيع بلادنا مثل ما كان

(ويورد منديل الفهيد في الجزء الخامس من سلسلته قصيدة لنمر "يخاطب فداوياً عنده اسمه حمود" (ص ص ٤٨-٤٩) يبدو عليها شبه واضح من هذه التي يوردها والين).

القصيدتان الخامسة والسادسة برواية سلمان وهما قصيدتان متبادلتان بينه وبين شاعر آخر يدعى سكران من أهل الرحيبين بالجوف . يقول والين عن سكران إنه شاعر فحل وراوية جيد وأنه سمعه مرة في الجوف ومرة في حائل ينشد الأشعار دون توقف لمدة قد تزيد على ساعة ونصف وكانت قصائده دائماً تحظى بإعجاب الجماهير الغفيرة من الحضور . وهو شاعر متعدد المواهب يقول القصائد في كل موضوع وبعضها في المدح وكان يحصل مقابل ذلك على هبات على شكل "بالطو" أو "معطف" أو ما شابه ذلك . وغالباً ما ذهب سكران إلى ابن رشيد في حائل ليمدحه بقصائده ويرجع من عنده محملاً بالهدايا . هذا وقد عثرت في أحد مخطوطات الشعر النبطي على ما يفيد أن عبيد بن رشيد بعث مقطوعة من ستة أبيات لسكران ينصحه فيها مطلعها :

حي الكلام اللي بخط لفاني من واحد ما واهس القلب ناسيه

وقد حاول سكران أن ينظم قصيدة في مدح والين، الذي كان يمارس مهنة الطب بين أبناء البادية، عله يحصل منه على هبة سخية لكن والين، على حد قوله، كان بحاجة للعطف أكثر منه لقلّة ذات اليد وكان يعيش على كرم "معازيه" من الشيوخ والأمرء وأجاويد العرب . سبب القصيدتين هو أن سكران وسلمان وقعا معاً في غرام فتاة تدعى "سويز" دون أن يعلم أحدهما عن الآخر . وبعدما اتضحت الأمور لكليهما حاول كل منهما أن يتنازل عن الفتاة للآخر ولكنه في قرارة نفسه يأمل أن يغلبه صاحبه في النبل والشم ويتنازل عن الفتاة لتكون من نصيبه هو . وفي النهاية تطير الفتاة من أيديهما ويتزوجها شخص ثالث . يقول سكران أربعة عشر بيتاً يبدأها قائلاً :

بالله رخص ياريش العين أوصيك كان انت ناوي يم خدما تروح

ويجيبه سلمان بتسعة أبيات فقط تختلف قافيتها عن أبيات سكران مما يثير تساؤلات حول شاعرية سلمان . يقول مطلع القصيدة :

يا راكب حراً الى سد بكر يا راكب خد لي خفيف الرسالة  
القطعة السابعة التي يوردها والين وتآلف من خمسة أبيات مطلعها :  
ياما حلا والشمس باد شعقها تحذيرة الزرقا على نقرة الجوف

يزعم والين أن القصيدة أطول من ذلك بكثير وأن صاحبها، الذي نسي والين إسمه،  
رفض أن يرويها له وأن الذي روى له هذه الأبيات الخمسة سلمان . ويقول والين إن  
قائل هذه القصيدة شاب من أهل الجوف انتقل مع أبويه إلى الكرك وكان يقوم بزيارة  
قصيرة إلى الجوف أثناء وجود والين فيها . والقصيدة نشر منها منديل الفهيد أربعة  
أبيات مع قصتها في الجزء الأول من سلسلته ونسبها إلى ابن سراج (ص ٢٥١) . والبيت  
الذي أورده والين ولم يورده منديل هو:

ان جواهل العيرات تومي علقها متبشرين بالغدا حقة الشوف

القصيدة الأخيرة مقطوعة قصيرة من ستة أبيات التقطها والين من رواة قبيلة بلي  
حينما كان ينتقل معهم وكانت تدور على ألسنة الجميع ويلهجون بها . ويقول والين إن  
"معزبه" من بلي ذكر له أنه كان مرة بصحبة رفيق له يدعى مشل في زيارة لأحد شيوخ  
الفقرا (عنزة) وسمع أحد الحضور يتغنّى بهذه القصيدة على الرماية . ويردف والين أن  
بدوياً من قبيلة بشر رافقه في رحلته من تيماء إلى حایل أكد له أن هذه أبيات قديمة قالها  
عقاب العواجي . (وهذه المعلومة التي سجلها والين عام ١٨٤٥م لو توافرت لدينا قرائن  
ومعلومات مشابهة لها لمساعدتنا في تحديد الفترة التي عاش فيها عقاب العواجي وربما  
تأريخ بعض الوقائع والمعارك التي حدثت بين الجعافرة بقيادته وبين شمر) . ويعتقد  
والين أن القصيدة طويلة لكنه لم يتمكن من الحصول على أكثر من ستة أبيات . وقد  
بلغت هذه القصيدة تسعة أبيات عند الأسمر خلف الجويعان الذي نشرها في ديوانه  
"شاعر من نجد" ونسبها إلى عقاب العواجي (ص ٢١٢) . يقول مطلع القصيدة :

ياشعة الصبيان عمر لنا البوز وامله من التتن الغويري وناسه

وعلى إثر أوجست والين يأتي قنصل بروسيا (ألمانيا الشرقية) في دمشق يوهان  
جوتفريد فيتشتاين Johann Gottfried Wetzstein الذي جمع بعض المخطوطات  
الشعرية بما فيها نص نثري جمعه عام ١٨٦٠م ونشره عام ١٨٦٨م تحت عنوان "ملاح

Sprachliches aus den Zeltlagern der "Syrischen Wüste". يبدأ فيتشتاين مقالته بالحديث عن والين والإشادة بجهوده مع إبداء بعض الملاحظات عليها والتي يمكن تلخيصها فيما يلي : ما نشره والين لا يمثل إلا جزءاً ضئيلاً من المادة الشعرية المخطوطة التي جمعها أثناء إقامته في معان وتيما وحائل ودومة الجندل ومشهد علي وعاد بها إلى أوروبا (تري أين هذه المادة المخطوطة ؟) وكانت إقامة والين في حائل بعد الحروب التي جرت بين حائل والقصيم والتي قيل فيها قصائد كثيرة جمع والين بعضاً منها . ويزعم فيتشتاين أن تلك الفترة التي استتب فيها الأمر لابن رشيد في حائل، وخصوصاً بعد انتصاراته على "القصمان" التي ألهبت حماس الشعراء، ازدهر الشعر كثيراً في جبل طي وبشكل ليس له مثيل . والنماذج الشعرية التي نشرها والين ليست بذات قيمة فنية كبيرة ومن المشكوك فيه أنه كان يفهمها فهماً جيداً . ويرجح فيتشتاين أن عدم نشر والين للقصائد الأخرى هو أنه جمعها على شكل مخطوطات عارية من الشروح والتعليقات لذلك فهو لا يفهمها ولا يستطيع التعامل معها . ومع ذلك يعترف فيتشتاين لوالين بشرف الريادة ويقر بأن النماذج التي نشرها هي أول معلومات لغوية يتلقاها الغرب من الصحراء العربية . إلا أنه يشير إلى أن الدكتور بيرتش W. Pertsch أمين مكتبة جوتا Gottha ذكر له أن فون سيتزين Seetzen أودع في مكتبة جوتا مجموعة خطية من القصائد التي جلبها من شرق الأردن، وخصوصاً من منطقة السلط والبلقا حيث تلتقي البادية مع الحاضرة ويترععرع فن الشعر .

وكان سيتزين يجيد التحدث بالعربية لكنه لم يكن متمكناً من القراءة والكتابة بها لذا لم تكن تتوافر لديه الكفاءة لنشر القصائد التي جمعها ولا دراستها . (وقد أطلع ألبرت سوسين Albert Socin على هذه المخطوطة وقال عنها أنها كتبت بعدة خطوط وأنها سيئة جداً ولا تتضمن أي قصائد من نجد . كما يؤكد سوسين الذي زار الشام وبلاد الرافدين بأنه لا يوجد رواة جيدون في مناطق البلقا وحوران) .

بعد هذه المقدمة يبدأ فيتشتاين بالحديث عن القطعة النثرية "السالفة" التي دونها في مضارب قبيلة ولد علي من عنزة وفي بيت عقيدهم صالح الطيار، حفيد كنعان الطيار، من عجوز شراري كان يحل ويرحل مع هذه القبيلة منذ ثلاثين عاماً يروي فيتشتاين أنه في أواخر صيف ١٨٦٠م جفت البحيرات القريبة من دمشق بسبب قلة نزول الأمطار

وتحولت في نهاية سبتمبر إلى مراتع خصبة . وكانت تلك السنة سنة عجفاء بالنسبة للبادية نفق فيها معظم حلالهم مما حدا بهم للقدوم من قريب ومن بعيد إلى تلك البحيرات التي امتلأت في شهر أكتوبر بالمخيمات والمواشي من مختلف القبائل التي جاءت لترعى عشبها . وعلى الرغم من أن تلك القبائل كانت في نزاع مستمر بعضها مع بعض ولسنين طويلة إلا أنها اضطرت في تلك السنة إلى التصالح والتعايش لتتمكن من الرعي في أحواض تلك البحيرات التي تحولت إلى حقول خضراء (هذا يذكرنا بفيضة الأديان التي قطنت عليها قبائل شمر وعنزة والظفير وفيها تمكن ماجد الحثري من الأخذ بثأره من مغوز التجنيف) . ويضيف فيتشتاين أن الفضول حدا به إلى الذهاب هناك لمشاهدة ذلك التجمع القبلي الضخم الذي شكل مشهداً عجيباً لافتاً للنظر ومثيراً للدهشة . وفي الثامن والعشرين من أكتوبر خرج من دمشق إلى حران وفي التاسع والعشرين منه نزل ضيفاً على صالح الطيار في خيمته، حيث كان أولاد علي ضاربين خيامهم في بحيرة عتيبة (اسم المكان وليست القبيلة المعروفة) . وهناك التقى بالشيخ الشراري الذي دون منه السالفة إضافة إلى سؤالي وقصائد أخرى منها قصيدة كنعان الطيار وقصته مع بنت ابن طوالة . ويقول فيتشتاين أن شيخة أولاد علي في بيت سمير بينما تحتفظ عائلة الطيار بمركز الغقادة، أي قيادة القبيلة في الحروب والغزوات . كما يضيف أن قبيلة الشرارات آنذاك تنتشر من تبوك إلى الجوف . لكن جذب منطقتهم لا يسمح لهم بحياة رغيدة لذا يضطر الكثير من رجالهم إلى ترك منطقتهم وقبيلتهم للعيش مع قبائل عنزة والبلقا وحران الذين يقدرونهم ويحترمونهم لشجاعتهم ومهارتهم في استخدام السلاح وإجادتهم الشعر . كما يتميزون بخفة الروح والظرف وطيب المعشر في السفر . ينشر فيتشتاين السالفة التي تقع في سبع عشرة صفحة مكتوبة بالأبجدية العربية ويتبع ذلك بترجمة ألمانية وتعليقات لغوية وإثنولوجية لكنه لا يكتبها بالأبجدية الصوتية اللاتينية .

والسالفة التي دونها فيتشتاين من الشراري لا يبدو أنها قصة تاريخية وقعت فعلاً لكن أجواءها واقعية ولغتها بدوية، كما أنها مليئة بالعبارات الجميلة والصور الشعرية التي تعكس حياة البدو وذوقهم . وهناك روايات أخرى للسالفة نشرها عبدالله بن عمار العنزي في كتابه "قطوف الأزهار" (عنزي ١٩٨٥ م ٧٣٥ - ٧٤٠) . ملخص السالفة كما يوردها فيتشتاين أن شعرياً وخالدياً جار عليهما الزمان وتنكر لهما الأهل والأصحاب مما



اضطر كلا منهما إلى الجلاء عن قبيلته . وحينما ذهب الخالدي يرتاد مكاناً لأهله تقابل في إحدى الرياض المعشبة مع الشمري الذي كان هناك لنفس الغرض . وبعد أن عرف كل منهما مأساة الآخر اتفقا على الجوار والنزول معا في تلك الروضة الخصبة . ولم يكن للشمري من الأولاد إلا بنت اسمها حمدة أما الخالدي فله ابن واحد اسمه هباس (وبالمناسبة فإن عزوة قبيلة بني خالد "أولاد هباس" أو "أولاد هبس") . ولرغبة الخالدي في مجاورة الشمري موّه عليه وقال له إنه مثله ليس له إلا بنت اسمها حمدة أيضاً، لأنه خاف لو علم الشمري بأن له ولداً لما قبل مجاورته خوفاً على بنته . وأمر الخالدي ابنه هباس أن يتزيا بزي البنات ويتصرف مع حمدة كما لو كان فتاة مثلها . لكن الحقيقة دوماً لا بد وأن تظهر . فقد صادف ذات يوم أن أغار قوم من الغزاة على إبل الشمري والخالدي ونهبوها . ولما عجز الأبوان عن استرداد الإبل اضطر هباس إلى أن يأخذ سلاحه ويركب الفرس ويسترد الإبل . ولما علم الشمري بحقيقة الأمر غاضب جاره الخالدي ورحل عنه . لكن الحب كان قد تمكن من قلب حمدة وهباس وصار كل منهما يحن إلى الآخر ويتحرق لرؤيته . وبعد مغامرات عديدة ومعاناة طويلة تتحقق الآمال ويلتئم الشمل ويقترن هباس بحمدة . ونورد هنا بداية السالفة ونكتبها بنفس الطريقة التي كتبها بها فيشتاين :

وكان شيخ الخوالد رجال الله منطية ولا له كود وليد اسمه هباس وكانت العربان تتلي ما لشيخ وهو راعي شور، مليح لين شوره على الغزو من أين ما ضربه الله يجيبه معه راس والسعد هاب له . ويوم راد الله يهبط به يالله عونتك وكان النحس يتولصه لما دعاه بلون راعي، وتفسقلت عنه العربان وصارت ما تشتهي تنزل حوله . وظهر واحد غيره راقصة له الدنيا وسعوداته زينات يالله عونتك راكبتة العرب بالغزا وبالرحيل والنزول والشور والقول عنده . وماذاك الشيخ الاول صار الراعي عندهم له قيمة أزود منه، وباقى عنده من حلاله فرس وراه مهرة ثنية ودرع وجوزين ردايني وسيفين ورمح وعندهم يلقي عشرين بعير ولاكن حالته زرية بين ربه وواسوه مسخرة، وكن قال هالشيخ لحرمة يا حرمة أنا طابت نفسي من هالعربان ومنازلهم حارم علي فلا أنزل ياغير ديرة ما ينزله كل مودماني حتى ما أشوف احد ولا أحد

يشوفن . وأمر على حرمة تواسي له زهاب الدرب وبيل له جود ماء وشد على  
 ذلوله وكرب عليه الحقب والبطان ونسف عليه الخرج وعلق الجويد وشذب  
 اليا هو بظهر ذلوله ويممه نية الشرق . وقلط الله بالنهار ينطحه وبالليل يمرج  
 وثمانية أيام على الوجه اليامه طب على هك الروضة الي ما تخالف عشابه من  
 رقيقة ومن الخافور ومن البختري ومن المار ومن النفل واشكال ما تنعرف .  
 ونوخ ذلوله وعقله ةولاكن الذلول تشبع من مطواه وهاذا موقاعد يمشي بوسط  
 العشاب يوم بحر اليا الفتيل مثل بصبوسة النار معلق، اليا هو بواردى وثرات  
 البواردي شايفته من بعيد وداغلته يريد يقوسه وكن شافو بعضهم . وكن قال  
 الخالدي الي هاذك : وش انت يا زلة ؟ قال : أنا الي تشوفن، وانت وش  
 انت ؟ قال له وأنا الي تشوفن ولاكن أنا سياف وانت بواردى وحق السياف  
 مع البواردي حقا زري . قال وش جيباك لهالكان ؟ قال : والله ياولد ما  
 جابن إلا شوم الدهر . وكان هاذيك الساعة ترتخي إيده لأنه صايبه ما صاب  
 الخالدي . ونشده من آيات القبائل انت قال له يارفيق الخير والله أنما  
 خالدي على الشينة وعلى الزينة . قال حق الله والقوم أنا شمري ولاكن الخلا  
 بين الاجواد حجاز اما عاد انت احك لي وش الي موصلك لهالكان . بدا  
 يحكي له بكلكش صار به من الاول إى القالي . وثرات الشمري صايبه ما  
 صاب الخالدي وجاي بعد يدور له على ديرة ما حد ينزل به والله جمع  
 هالتنين إلى هالكان . وقاموا هاذيك الساعة كدّم على بعضهم البعض وتسالوا  
 وباتم هك الليلة .

وهذا مقطع آخر من السالفة :

يوم ذات الايام سارحات البنات بالطرش ولن الله سلط عليهن غزو وغار  
 الغزو على البنات وأخذوا الطرش . قامن البنات يصيحن : الطرش وخذ ياهل  
 الخيل . سمعوا آباتهم الصياح شدوا على خيلهم وركبوا ولحقوا الطرش حتى  
 يفكوه والبنات يركضن وراهم . وقالوا الشياب إلى القوم : العقلة يا أهل الخيل  
 . قال عقيدهم : عقبولهم قدر عشرة بمارين . فقالوا الشياب : ما يجزينا  
 عشرة . وقال العقيد : وما شأن البنات النشامة عقبو سته . وقالوا الشياب :

ما يقيمتا ترانا بدو خلاوي وديرة منقطعة ومستمين عل الله وعلى لبنهن والعذر  
 لله وليكم ماش أحد غيرنا حنا هاللي تشوفون وهالبنيات وعجائز ثنتين لكل  
 واحد عجوز وجار علينا الزمان وعرباننا طشت عنا وتدمنا هالكان ولا لنا  
 معاش غير الله ولبن اباعرنا . قال واحد : وش عذرنا من طحانات الزهاب  
 يوم لقينا نقول لهن كسبنا طرش وصنعه ثنين شيب لحقونا وطلبوا العقلة  
 وردينا لهم اباعرهم وحنا متحزمين عليها ؟ هانا ما يصير هالحكي والله ما لكم  
 عندنا غير هالحراب ان كان بكم خير هذا حلالكم قبال عيونكم والا نوخذ  
 البنات بعد ونخلي الوحوش تاكلكم . يوم سمعوا الشباب هذا الكلام قالوا :  
 الحملة على الله وانتم القالطين عليها، انتم مستعينين بكثر خيلكم وحنا  
 مستعينين بالله . وعلقوا الطراد ضلوا يطاردونهم من الضحا للعصر والشباب ما  
 جازوا الخيل والخيال ماجازوا الشباب ولاكن الشباب اتلقوا . يوم هباس  
 شاف الشباب عدوا روح يركض على البيوت وهو يركض قرط المواعين ما خلا  
 عليه إلا طاق البيرمة . يوم قامت امه تشد عالمهرة المرشحة وسففته العنان  
 وطلعت السيف والرداني والجوخة . جتها الشمرية وقالت : انتي تشدين على  
 هالمهرة وين راعيه ؟ قالت ام الولد ذلوان يلقي وتشوفين بعينك . وهذهن  
 يتحاكين والا الولد نافدو عليهن يركض قامت امه تزغرت إله . لفي ولبس  
 الجوخة واتحزم بالرداني والسيف وشقلب لنه بضهر مهرته وكان يجيبه على  
 مهله تهرب برفاق الياما أقبل على حمدة وكان يعرض عنده وينتخي : عيناك  
 يا حمدة زغرتي لهباس . قالت : ياخي وش هباس ؟ قال : رفيقتك تراه هو  
 ولد ماهو بنت . قامت تعج الزغاريت مثل صهين المهار وقمت تشوش والنخوة  
 براسه . وقام لكد عالحييل وحمدة نثرت شعره وراه وزغرتله . وهو يقول :  
 يا بخت حمدة بالقلايع . والشباب وقفوا لأنهم عدماينين . وانك يا هباس تناطح  
 انت وهك الخيال ضربه سيف اليا هو قاطع راسه جاب فرسه لعند حمدة  
 ربطه بايدها وقامت حمدة تنخيه . ويركض عليهم ثاني مرة ويرسي ثلاثة  
 ويجيب خيلهم ويفك الطرش وباقي خيل القوم فارت وروحوا هانول  
 مبسوطين .

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر كان ألبرت سوسين Albert Socin يتجول في الشام وبلاد الرافدين ويقوم بجمع الشعر من البلقا وهوران ودمشق وحلب وبغداد وسوق الشيوخ، وحتى من ماردين على الحدود السورية التركية . ونشر حصيلته الضخمة عام ١٩٠٠م والتي هي بمثابة أول ديوان يطبع في الشعر النبطي مع ترجمات ودراسات لغوية وإثنولوجية مفصلة ويقع الكتاب في حوالي ثمانمائة صفحة ويتضمن مائة واثنيتي عشرة قصيدة . قابل سوسين في طريقه من دمشق إلى بغداد حملة من تجار العقيلات الذين أرشدوه في بغداد إلى مهاجر من أهالي بريدة اسمه محمد ويلقب بالأفندي لأنه يجيد القراءة والكتابة . وأملى محمد على سوسين الكثير من القصائد التي كان يحفظها عن ظهر قلب . وقابل سوسين شخصاً من مدينة عنيزة اسمه مسفر كتب عنه بعض القصائد لكن روايته لم تكن بجودة رواية محمد . ومحمد الحساوي من الاحساء هو الراوية الثالث الذي قابله سوسين في سوق الشيوخ ووصفه بالغباء وعدم الفهم ولكنه اكتتب منه بعض القصائد واشترى منه ديواناً مخطوطاً يحتوي على الكثير من القصائد . وفي ماردين جمع سوسين بعض النصوص الركيكة من فلاح قال له إنه من قبيلة طي . ويقول سوسين أنه رأى الكثير من مخطوطات الشعر النبطي ، من ضمنها ديوان نمر بن عدوان .

وفي سنة ١٩١٩م نشر كارلو دي لاند برج Carlo de Landberg ثلاث سوانف بقصائدها جمعها أثناء تجواله بمنطقة حوران . ويشير لاندبرج إلى أنه جمع السالفة الأولى والثالثة من فلاح مسيحي يدعى موسى رارا من أهالي قرية خبيب التي تقع في حوران . والغريب أن لاندبرج يدعي أن موسى هذا أكد له أنه هو الذي أملى على فيثشتاين في دمشق السالفة التي أوردنا طرفاً منها أعلاه وأن فيثشتاين لم يذهب بتاتاً إلى مضارب قبيلة ولد علي كما يدعي . السالفة الأولى التي يوردها لاندبرج سالفة ماجد الحثري مع قصيدته التي مطلعها حسب هذه الرواية "يا عمرو يامشكاي يافرحتي شوف" ومجموع أبياتها سبعة عشر بيتاً . لكن السالفة كما أوردتها لاندبرج تختلف كلية عما هو متداول بين الرواة في نجد وشمال الجزيرة العربية . كما تختلف أيضاً رواية السالفة الثالثة التي تتحدث عن سعدون العواجي وما جرى له مع شامخ عن تلك التي أوردتها محمد بن أحمد السديري في كتابه أبطال من الصحراء . نجد مثلاً أن مزعل العواجي في

هذه الرواية يصبح ابناً لسعدون وأن مسلط (التمياط) يصبح من العواجية وهو الذي يضطهد سعدون يساعده في ذلك ابن عمه شامخ (كذا) . وقصيدة سعدون التي يوجهها لمسلط التميّاط ويبدأها بقوله "يا راكب اللي مانهجها الجنينا" تنسب لعقاب الذي يوجهها في هذه الرواية لأبيه . وتتضمن السالفة أيضاً قصيدة سعدون التي مطلعها :

ياراكب من عندنا فوق مهذاب      زواع قطاع الغياي إلى نويت  
وقصيدة ذكر العواجية التي مطلعها :

ياغوش ياللي فوق حيل هفايف      ليهن بكم عقب المسير اجتوال

مع اختلاف واضح بين هذه الرواية وما هو متداول بين الرواة في نجد وشمال الجزيرة . كما يورد لاندبرج سالفة عن شيخ من شيوخ البادية يسمى الحيارى وانتصاره على الدالي موسى الذي أرسلته الدولة العثمانية للقضاء عليه . وبعد انتصاره على الدالي يقول الحيارى قصيدة من ثمانية عشر بيتاً يبدأها بقوله :

يقول الحيارى الذي شاع ذكره      وحمد الفتى قبل الغمال ضلال

وعلى الرغم مما أوردناه من ملاحظات على هذه الروايات وصحتها التاريخية إلا أن صياغتها جيدة وأسلوبها جميل ولغتها قريبة جداً من لغة البدو وطريقتهم في السرد والرواية .

في عام ١٩٠٨م بدأ الأويس موزيل Alois Musil رحلاته الاستكشافية في شمال الجزيرة العربية . وأمضى بعض الوقت يحل ويرحل مع قبيلة الرولة تحت حباية الشيخ نوري بن شعلان وتسمى باسم موسى الرويلي . وموزيل تشيكوسلوفاكي الأصل وشغل منصب أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة تشارلز في براغ . ونشر نتائج أبحاثه في سلسلة من الكتب باللغة الألمانية التي ترجمت فيما بعد إلى الإنجليزية ، ومن أهمها كتابه عن قبيلة الرولة الذي نشر بالإنجليزية عام ١٩٢٨م . ويحتوي هذا الكتاب على كم وافر من السواف والقصائد والأحاديث ويزخر بالمعلومات الثرية عن حياة البدو . ومن الذين استعان بهم موزيل في الحصول على مادة كتابه الشيخ النوري بن شعلان وكاتبه جواد أبوعلي العاني وعبد حمّار أبو عواد وكذلك عوده أبو بركان الكويكبى وأبو منديل القطعي ومحمد القضيبي وعبد الله المطرود وكلهم من الرولة ، بالإضافة إلى بليهان بن

إبراهيم بن داغر بن ضري بن مصرب من القمصنة من السبعة . (ومنديل القطعي الذي ذكره موزيل يرد إسمه في السوالمف التي جمعت من رواء شمّر خلال الفترة ١٤٠٣-١٤٠٥هـ) . وقد سبق أن قمت بجمع جميع الأحاديث التي بثها موزيل في كتاب الرولة ونقلتها إلى العربية ونشرتها تحت عنوان "حذاء الخيل" وقدمت لهذا الكتيب بمقدمة تلخص محتويات كتاب الرولة . والآن أصبحت الفصول الأولى من كتاب الرولة متاحة لقراء العربية بفضل الترجمة التي أعدها الدكتور محمد السديس . ومن يريد مزيداً من نماذج أحادي الخيل يمكنه الاطلاع على العمل الذي نشره أحمد العريفي في هذا الموضوع .

ومنذ بداية القرن العشرين استحوذت قبيلة الرولة على اهتمام الرحالة الأجانب فكتبوا عنها كتباً مطولة ومفصلة، منها بالإضافة إلى كتاب موزيل كتاب نشره كارل رسوان Carl Raswan سنة ١٩٣٥م تحت عنوان The Black Tents of Arabia وهو مزود بالصور المعبرة منها صورة للشيخ النوري بن شعلان وحفيده فواز بن نواف وصور أخرى عن حياة الرولة في حلهم وترحالهم وفي حالات السلم والحرب . وفي عام ١٩٨١م نشر ويليام لانكاستر William Lancaster كتاباً بعنوان The Rwala Bedouin Today وهو دراسة أنثروبولوجية لقبيلة الرولة وما طرأ عليها من تغيرات في وقتنا الحاضر .

وفي الثلاثينات من هذا القرن الميلادي نشر روبرت مونتان Robert Montagne بعض السوالمف والقصائد التي دونها من رواء شمّر الجزيرة . اثنتان من هذه السوالمف والقصائد تتعلقان بحياة شايح الامسح ومغامراته، والبقية تتألف من ست عشرة سالفة بقصائدها جمع العشر الأولى منها من هليل العلوان من عبدة وجمع الخمس التي تليها من محمد الحشان من الخرصة والأخيرة جمعها من قبيلة طي . وهذه قائمة بعناوين السوالمف الست عشرة كما أوردها مونتان :

- ١ - سالفة بهيج بعقده .
- ٢ - سالفة الهذال عبد العزيز وعبد الله ابن عم له .
- ٣ - سالفة مطلق الجربا بنجد .

٤ - سالفة لابن سمود يخطب بنت لابن قرمله ، شيخ قحطان .

٥ - سالفة عقاب وحجاب .

٦ - سالفة ابن رشيد يتنارا بهامس .

٧ - ساجر الرفدي قومانى على محمد بن رشيد .

٨ - سالفة حزير الرعوجي عاشق بنت عمه حروه .

٩ - سالفة جدعان بن مهيد غزا على شمر .

١٠ - سالفة الدقيس ، ابن سويط عاشقه .

١١ - كنعان الطيار عند مطلق الجربا .

١٢ - صفوق بديرة العراق .

١٣ - مطلق بنجد .

١٤ - صفوق وحمود العامر ابن أخيه .

١٥ - سالفة محسن الهزاني .

١٦ - سالفة الموالي وطي بالجزيرة .

والقيمة الأدبية لهذه السوالم ضعيفة جداً ويبدو أن الرواة الذين أخذ عنهم مؤنثان ليسوا على المستوى المطلوب . وواضح من عناوين هذه السوالم أنها من الأدب المتداول عندنا في نجد ، لكن الروايات النجدية حسب ما سمعتها وجمعت بعضاً منها بنفسى من مصادر شفوية أفضل من هذه بكثير .

وفي عام ١٩٣٨م نشر المستشرق الألماني ج ج هس J.J. Hess كتيباً يحتوي على حكايات وقصائد وعادات وتقاليد البدو في قلب الجزيرة العربية . يحتوي الكتاب على مواد لغوية وإثنوجرافية وأدبية ومعلومات أخرى تلقي بعض الضوء على حياة البادية . استقى هيس مادته مشافهة من اثنين من البدو الذين التقى بهما في القاهرة أحدهما عتيبي اسمه موهق بن عايض بن عجاج الغنامي والآخر قحطاني اسمه مسفر . ويعتمد هس موهق ويشيد بفصاحته وبراعته في السرد والرواية وقدرته على توصيل المعلومات

وتفسيرها، ويقول أنه أمضى معه قرابة خمس سنوات في القاهرة تعلم منه خلالها كل ما يعرفه عن لهجة عتيبة وعاداتها وتقاليدها . عمل موهق مع محمد البسام، الذي يعد من أكبر قجار عقيل، في جلب الإبل إلى مصر والشام . وخلال عمله مع ابن بسام تردد موهق على القاهرة وعرفها جيداً . وخلال الحرب العالمية الأولى عمل جندياً في جيش الشريف حسين . وبعد فتح الحجاز واشتداد وطأة الإخوان فضل موهق الانتقال إلى مصر عام ١٩٣٠م والإقامة هناك حيث عمل خفياً في عزبة عزيز عزت باشا . ومن المؤسف أن القصائد القليلة التي يتضمنها كتاب هس ترد بالترجمة الألمانية دون الكتابة الصوتية أو الأصل العربي .

وبعد ذلك مرت فترة فترت فيها الجهود الاستشرافية في مجال جمع ودراسة الشعر النبطي وإن كانت قد نشطت بشكل ملحوظ فيما يتعلق بدراسة اللهجات . وسبق أن ألمحنا إلى أن فنلندا، على يد أوجست والين، لها فضل السبق والريادة من حيث الاهتمام الأكاديمي بالشعر النبطي . وفي السبعينات من هذا القرن تعود فنلندا مرة أخرى على يد البروفيسور هايكي بالغا Heikki Palva من جامعة هلسنكي لتحتل مركز الصدارة في هذا المجال . والبروفيسور بالغا عالم مرموق في مجال الدراسات اللغوية والأسلوبية، وخصوصاً دراسة اللغات السامية واللهجات العربية وأسلوب الرواية الشفهية، ومؤلفاته في هذا المجال أكثر مما يفسح المجال بحصره هنا . وتتركز اهتماماته بدراسة لهجات بادية الأردن مثل الحويطات والمجارمة وبني صخر ومناطق السلط والبلقا وحصبان . ونشر بالغا مقالة عن قضايا الوزن في الشعر اليدوي من وجهة النظر اللغوية .

ولا تخلو دراسات بالغا اللغوية من النفس الأدبي نظراً لطبيعة المادة التي يتعامل معها والتي تتألف في معظمها من سواف وقصائد شفوية يسجلها من الرواة أثناء وجوده بين أهل المناطق والقبائل المذكورة . ودراسات بالغا عظيمة الفائدة من الناحية اللغوية والأسلوبية، لكنها قد تكون أقل قيمة من الناحية الأدبية بالنسبة للمهتمين بالشعر النبطي . من يقرأ السواف والقصائد التي يوردها في دراساته لا يخامرهم أدنى شك في أن منشأها من نجد ومن القبائل التي تقطن شمال الجزيرة العربية . لكنها أثناء هجرتها إلى الأردن وفلسطين تصبح على ألسنة الرواة من الفلاحين هناك مختلفة اختلافاً واضحاً عن



الأصل المتداول في نجد، وتطراً عليها تحولات جذرية لا من حيث اللغة ولا من حيث المضمون، لدرجة أن القصائد تختل أوزانها وتفقد الكثير من نسيجها الشعري ورونقها الفني . وأشك أن أصحاب النظر والمتذوقين لهذا اللون من الأدب من أهالي نجد والبادية سيستسيغون هذه النماذج ويستمتعون بها لو أقيمت على مسامعهم . ومرد ذلك إلى التباين اللغوي والثقافي بين البيئة الأصلية التي نشأ فيها هذا اللون من الأدب وبين بيئة الفلاحين التي جمع منها بالغا مادته . وقد لا تكون العينات التي جمعها بالغا على المستوى المطلوب من الناحية الأدبية لكنها مع ذلك تبقى أفضل بكثير من السوالف والقصائد التي جمعها هـ. هـ. سبور H.H. Spoer مع زميله إلياس نصر الله حداد من جنوب فلسطين وشرق الأردن والمنسوبة على حد قولهما لنمر بن عدوان . وتساؤلنا حول القيمة الفنية لهذه النماذج لا يضير الباحث في شيء . والقيمة الفنية على كل حال ليست هي التي تحدد القيمة العلمية للمادة ولا أهمية النتائج التي تتمخض عن دراستها لأن الأساس الذي تقوم عليه فلسفة العلم هو أن أي شيء، وكل شيء، قابل للدراسة، والهدف الأساسي الذي يرمي إليه بالغا وكذلك سبور هو هدف لغوي قبل أن يكون هدفاً أدبياً أو فنياً، والنتائج التي توصلوا إليها في هذا الصدد مهمة جداً . أما من حيث الدراسات الأدبية المقارنة فإن المادة التي جمعها هذان الباحثان تفيدنا في رصد التحولات التي تطرأ على السوالف والقصائد شكلاً ومضموناً حينما تهاجر من موطنها الأصلي إلى بيئة غريبة عنها لغوياً وثقافياً والأسباب التي تساهم في تحول هذا الأدب من مادة تاريخية إلى مادة أسطورية .

ومن المستشرقين المعاصرين الذين عنوا بجمع نصوص من الأشعار والسوالف البدوية من مصادرها الشفهية ودراستها دراسة لغوية بروس إنغام Bruse Ingham من جامعة لندن .

نشر إنغام في عام ١٩٨٦م كتاباً من مائة وخمسة وثلاثين صفحة عن قبيل الظفير وتاريخها مع دراسة لغوية . وفي هذه الدراسة يورد إنغام أربع عشرة سألقة بقصائدها استقى أكثرها من نايف بن حمود بن سويط والباقي من محمد بن سعدون بن سويط ومهدي بن دغيم القاسمي ومطني بن بجوي الخالدي . وكل هذه السوالف والقصائد تدور حول تاريخ قبيلة السويط وأفعالها في العصور السابقة . هذا وقد صدرت ترجمة عربية

لكتاب إنغام عن الظفير قام بها عطية بن كريم الظفيري (إنغام ١٩٩٥) . ومن المقالات الممتعة والمفيدة التي نشرها إنغام مقالة له عن المصطلحات الخاصة بالإبل عند قبيلة المرة، وله مقالة أخرى عن السالفة كجنس أدبي .

ومن المصادر المفيدة في دراسة شعر البادية أعمال الباحث الإسرائيلي كلينتون ببلي Clinton Bailey الذي أمضى حوالي عشرين عاماً في دراسة أحوال بادية سيناء وصحراء النقب ونشر العديد من المقالات وكتاباً بعنوان *Bedouin Poetry from Sinai and the Negev* يحتوي الكثير من القصائد التي جمعها من الرواة والشعراء البدو ونشرها بنصوصها العربية مع ترجمات إنجليزية . وتقسم أعمال ببلي بالنزعة الإثنولوجية حيث أنه يركز على النواحي الثقافية والاجتماعية والتاريخية ويلجأ إلى الشعر للحصول على معلومات من هذا القبيل . ويؤخذ على ببلي ضعف الجانب اللغوي في أبحاثه حيث من الواضح أن تأهيله في العلوم اللسانية يعاني من القصور وهو لا يجيد لغة البدو إجادة تسمح له بفهم أشعارهم وتذوقها على الوجه الصحيح . ومع ذلك تبقى مؤلفات ببلي من المراجع المهمة عن شعر بادية سيناء وصحراء النقب .

ومن الملاحظ أن الدراسات اللغوية تحتل مركز الصدارة في جهود المستشرقين التي استعرضناها حتى الآن . وجمع نصوص القصائد النبطية والسوالم البدوية وتحليلها بالنسبة لهؤلاء المستشرقين الذين تحدثنا عنهم ليس أمراً مطلوباً لذاته وإنما هو يأتي كحاشية لاهتمامات أخرى أشمل وأعم مثل دراسة اللهجات العربية واللغات السامية والدراسات التوراتية . والقليل من هؤلاء له اهتمام مثلاً بالدراسات الشعبية أو الأنثروبولوجية أو الدراسات الأدبية المقارنة . بل إن البعض منهم، مثل ألبرت سوسين، يثير الشكوك والتساؤلات حول القيمة الفنية والجمالية لهذا الأدب ويتعامل معه باستعلاء شديد . وبدون التقليل من أهمية هذه الدراسات وقيمتها العلمية فإنه لا يوجد بينها ما يصلح في نظري كمدخل أدبي جيد للشعر النبطي يبرز خصائصه الفنية وسماته الجمالية . هذا المدخل الأدبي مفقود في جميع هذه الأعمال ولا يتوافر إلا في كتابات المستشرق الهولندي المعاصر مارسيل كوربرسهوك Marcel Kurpershoek . انصب اهتمام كوربرسهوك في بداية حياته العلمية على الأدب العربي المعاصر، وخصوصاً فن الرواية والقصة، وكتب رسالته للدكتوراة عن يوسف إدريس . وبعد أن عين موظفاً في السفارة

الهولندية بالرياض بدأ اهتمامه بلهجة نجد والشعر النبطي . وطوال السنين التي أمضاها في عمله بالسفارة كان دؤوباً على مجالسة الرواة والشعراء النبطيين البارزين وقراءة الدواوين الشعرية المطبوعة وكل ما يتعلق بالشعر النبطي من مصادر تاريخية وجغرافية حتى أصبح يفهم هذا الشعر ويتذوقه ويتحسس مواطن الجمال فيه والإبداع بشكل يفوق جميع من سبقه من المستشرقين ثم صار يشد الرحال إلى البادية ويمضي الأسابيع والأشهر يجوب القلوات حتى سهر حياة البدو وتمثل قيمهم واستوعب طرائقهم في السلوك والتفكير والتعبير .

نشر كوربرسهوك العديد من الدراسات والمقالات عن الشعر النبطي باللغات العربية والهولندية والإنجليزية . ومن أهم أعماله كتابان : الأول صدر عام ١٩٩٤م ومجموع صفحاته ٣٦٨ صفحة وهو عبارة عن جمع ودراسة لأخبار وأشعار الشاعر عبد الله بن محمد بن حزيّم الدوسري الملقب الدندان من الحرارشة من الرجبان جمعها من الشاعر نفسه أثناء تجواله معه في بادية وادي الدواسر . والآخر صدر عام ١٩٩٥م ومجموع صفحاته ٥١٠ صفحات وهو جمع ودراسة لأشعار وأخبار الفارس شليويح بن ماعز العطاوي وأخيه بخيت جمعها مشافهة من خالد بن مشعان بن فاجر بن شليويح العطاوي أمير مركز عبلا قرب عفيف . وتتميز دراسات مارسيل بالدقة العلمية والعمق والشمولية والفهم الواعي والسليم لمعاني الشعر النبطي ولغته وصوره وأساليبه الفنية .

ثم هناك إعلان تم نشرهما بجامعة كاليفورنيا سنة ١٩٨٥م وهو عبارة عن مقدمة عامة عن الشعر النبطي تطرقت لمواضيع عديدة منها أوزان الشعر النبطي ولغته وعلاقته بالشعر الجاهلي ونظرية الصياغة الشفهية ومدى انطباقها على الشعر العربي . والكتاب الآخر نشرته دار هاراسوتز Harrassowitz في ألمانيا سنة ١٩٩٢م وهو عبارة عن دراسة لغوية وإثنولوجية لسالفة طويلة بلهجة شمر تتخللها بعض القصائد وتدور حول مغازي هذلول الشويهري من السويد من شمر على الشرارات وعنزة وكيف قبض عليه عقاب العواجي وقتله وكيف غزا هابس القميظ من العراق على الجعافرة في نجد وقتل عقاباً وأخاه حجاباً ثاراً لمقتل هذلول ؟. هذا بالإضافة إلى ثلاث مقالات نشرت بالإنجليزية في دوريات أجنبية إحداها عن أوزان الشعر النبطي وأخرى عبارة عن تحليل وترجمة لقصيدة والسالفة المتعلقة بها والأخيرة مقالة نشرت عام ١٩٨٩م في مجلة Oral

Tradition عن المحاورات الشعرية أو ما يسمى شعر القلطة . وفي دراستنا لهذا اللون الشعري ومقارنته بما يماثله في البلدان العربية الأخرى يمكن الاستفادة من مقالتين نشرتا باللغة الإنجليزية إحداهما كتبها عدنان حيدر Adnan Haydar عن شعر المحاورة في لبنان، ويسمونه الزجل، والأخرى كتبها ضرغام سبيت Dirgham H. Sbait عن شعر المحاورة في فلسطين .

ثم هناك عملان مهمان وإن كانا يقيمان جغرافياً وثقافياً على هامش دائرة الشعر النبطي . هذان العملان هما : دراسة ليلي أبو لغد Lila Abu Lughod عن أشعار نساء قبيلة ولد علي في صحراء مصر الغربية ودراسة ستيف كيتون Steve C. Caton عن شعر قبائل بكيل في منطقة خولان الطيال شرق اليمن . أرى أن هذان العملان يمثلان نموذجاً ممتازاً في تطبيق المقرب النقدي الأنثروبولوجي في دراسة الشعر العامي ومحاولة الفوص إلى أعماق الوظائف النفسية والاجتماعية لهذا الأدب ومحاولة الاستكشاف البنى الذهنية والشعورية التي تشكله .

## مصادر ثانوية

ثم هناك المصادر الثانوية التي لا تتناول الشعر النبطي بشكل مباشر لكنها تشكل أدوات مهمة من أدوات البحث التي لا غنى عنها للباحث الدقق . ومن أهم هذه المصادر هي تلك المصادر اللغوية والإثنوجرافية . ومن أبرز المهتمين بدراسة اللهجات البدوية وأساليب التعبير الشفهية هايكي بالغا Heikki Palva وبروس إنغام Bruce Ingham الذين سبق الحديث عنهما . ومن رواد دراسة اللهجات البدوية جين كاننينو Jean Cantineau وت.م. جونستون T. M. Johnstone وهايم بلانك Haim Blanc .

كما تشتمل قائمة المصادر الأجنبية على أبرز أعمال الرحالة الأجانب ممن جابوا أرجاء الجزيرة العربية وبعض من عملوا في المجال الدبلوماسي والذين تمثل كتاباتهم أهم المصادر الإثنوجرافية التي تساعدنا على تمثيل البيئة التقليدية التي نشأ فيها الشعر النبطي . وإضافة إلى أعمال جورج أوجست والين و لويس موزيل وغيرهما ممن سبقت الإشارة إليهم هناك أعمال أخرى في غاية الأهمية . ويمد يوهان لودفيج بوركهارت

Johann Ludwig Burckhardt وهو سويسري الأصل، من أوائل المهتمين بدراسة المجتمعات البدوية . أتقن بوركهارت اللغة العربية وأجادها إجادة تامة وتفقه في علوم الإسلام الشرعية وتعمق فيها واعتنق الإسلام وأدى فريضة الحج وزار المدينة ودون ملاحظاته خلال زيارته للأماكن المقدسة في كتابه Travels in Arabia . وقدم للقارئ الغربي من خلال كتابه هذا أول وصف مفصل وحقيقي للكعبة المشرفة والحرمين المكي والمدني كما وصف المظاهر العمرانية والاجتماعية والسياسية في جدة ومكة والمدينة وينبع . وتوفى في القاهرة بعد عودته من الأماكن المقدسة بفترة وجيزة ودفن في مقابر المسلمين . وقبل زيارته لمصر والحجاز، والتي تزامنت مع بداية حملة محمد علي ضد جزيرة العرب، كان بوركهارت قد أقام لفترة عامين في حلب مما أتاح له فرصة الاحتكاك بقبيلة عنزة وبعض القبائل الرحل التي تقطن الصحراء السورية وشمال الجزيرة العربية، وتجول بين هذه القبائل ودرس أحوالهم ودون الكثير من الملاحظات عنهم . ويعد كتابه Notes on the Bedouins and Wahabys من الكتابات المتميزة والغنية بالمعلومات عن المجتمع البدوي وحياة الصحراء ولا يزال من المراجع التي يعتمد عليها في هذا المجال .

وقد وصف الدكتور عبد الله العثيمين (١٤٠٥ : ٣) بوركهارت بأنه من أبرز الرحالة الأوروبيين إلى البلاد العربية وأكثرهم دقة وإنصافاً . وكتابات بوركهارت السويسري تشبه كتابات والين الفنلندي في موضوعيتها وتماطفها مع عرب الصحراء وخلوها من التحيز الديني والعنصرية العرقية، بل إن القارئ يجد فيها تذكراً من الأوروبيين وطريقة حياتهم وتمجيذاً لحياة البادية وشغفاً بالصحراء .

وممن ادعوا الإسلام وتظاهروا به وتزيا بزى الدراويش من أجل دخول مكة والمدينة وزيارة الأماكن المقدسة الرحالة الإنجليزي المغامر ريتشارد بيرتون Richard Burton الذي اشتهر بترجمته ألف ليلة وليلة وبتدوينه لرحلته إلى الحجاز عام ١٨٥٣م في كتابه Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah & Meccah الذي يقع في جزئين وبالإضافة إلى وصف الأماكن المقدسة وما يحف بالرحلة إلى هناك من مخاطر ومصاعب يعطي بيرتون معلومات إثنوجرافية جمة عن قبائل الحجاز وحياة البدو في

الصحراء، وإن كان منهج بيرتون في الكتابة أقرب إلى طابع الإثارة منه إلى التوثيق الدقيق والملاحظة الموضوعية. ولما توفي في سنة ١٩٨٠م بنت له زوجته ضريحاً كبيراً على هيئة بيت من بيوت الشعر البدوية .

ولم تمض عشر سنوات على رحلة بيتون حتى شد الرحال في إثره رحالة إنجليزي آخر لا يقل عنه إثارة للجدل هو ويليام بالجريف William Gifford Palgrave الذي بدأ رحلته عام ١٨٦٢م . سافر بالجريف مدعياً الطب تحت اسم مستعار هو سليم أبو محمود العيص يرافقه مدرس إغريقي مقيم في زحلة في لبنان ويجيد العربية انتحل اسم بركات بدلاً من اسمه الإغريقي . ومن معان سافر الاثنان إلى الجوف ثم إلى حائل . وهناك تقابل بلجريف مع الأمير طلال بن رشيد الذي قال عنه : "من بين جميع الحكام والأمراء الذين سمحت لي فرصة التشرف بالتعرف عليهم، سواء في أوروبا أو في آسيا، لم أجد إلا القليل من بينهم من يداني طلال في حذقه لفن الحكم" . وفي الرياض قابل الإمام فيصل وابنه عبد الله بن فيصل الذي قال عنه إنه قريب الشبه من هنري الثامن في طبعته وفي شجاعته واعتداده بنفسه ومهارته السياسية . ومن نجد ذهب بالجريف إلى البحرين وقطر وعمان . ويدعي أن السفينة التي استقلها من هناك تحطمت في عرض البحر وفقد كل مذكراته . وفي عام ١٨٦٥م نشر كتابه *Narrative of a Year, Journey through Central and Eastern Arabia* . ويختلف بالجريف عن الرحالة الآخرين في تفضيله للحضر على البدو وكرهه الشديد لأهل البادية . ويحتوي عمله على أخطاء كثيرة وتناقضات حملت بعض الرحالة المتأخرين مثل فيلبي إلى الشك في أنه فعلاً قام برحلة إلى نجد . ومع ذلك يحتوي كتابه على معلومات دقيقة عن المنطقة وأهلها وتفاصيل ذات خصوصية شديدة لا يمكن أن يعرفها إلا من أمضى بعض الوقت هناك .

ومن الأعمال الكلاسيكية الخالدة التي لانظير لها بين كتب الرحلات كتاب تشارلز داوتي Charles Montagu Doughty وعنوانه الترحال في صحاري العرب *Travels in Arabia Deserta* . في عام ١٨٧٦م سحب داوتي قافلة الحج المنطلقة من دمشق وعند مدائن صالح علم قائد الحملة أن داوتي مسيحي فأرغمه على عدم مرافقة القافلة والبقاء في مدائن صالح . وأمضى داوتي ما يقرب من واحد وعشرين شهراً يتجول بين قبيلة الفقرا من عنزة وبين مناطق الحرة وخيبر وتيماء وحائل وعنيزة وبريدة واتصل بالأمير محمد بن

رشيد وزامل بن سليم وحسن بن مهنا وتصادف وجوده في حائل مع عودة راكان بن حثلين من حبس الأتراك . عايش داوتي البدو وعاشروهم في حلهم وترحالهم، في الشدة والرخاء، وفي السلم والحرب وشاهد بعينه عمليات الغزو وتعرض هو نفسه للسلب . ويصف داوتي كل مشاهداته وانطباعاته وصفاً دقيقاً شيقاً، لا تفوته شاردة ولا واردة . ولاقى داوتي عنقاً شديداً في رحلته لأنه كان يصير على المجاهرة بدينه المسيحي دون احترام لمشاعر الناس البسطاء وكان شديد التعصب ضد الإسلام . وعلى الرغم من صعوبة لغته وغرابة أسلوبه، وعلى الرغم من طوله المفرط ورؤيته المتحيزة أحياناً يبقى كتاب داوتي عملاً عملاقاً ومثيراً تتجدد قيمته مع مرور الوقت نظراً لما يحتويه من معلومات تفصيلية عن حياة البادية والحاضرة في شمال نجد .

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي توافد على حائل وشمال نجد عدد من الرحالة والمستكشفين منهم، بالإضافة إلى داوتي، كارلو جوارماني Carlo Guarmani الإيطالي وبوليوس يوتنج Julius Euting الألماني وتشارلز هوبير Charles Huber الفرنسي والليدي آن بلنت Lady Anne Blunt التي جاءت من انجلترا بصحبة زوجها ولفريد سكاوين بلنت Wilfrid Scawen Blunt . ولا تخفي الليدي بلنت في كتابها Pilgrimage to Najd عشقها وزوجها لحياة الصحراء وتعاطفها الشديد مع البدو وتعطي معلومات شيقة عن بلاط محمد بن رشيد وخيله وقصوره ونسائه . ونظراً لكونها امرأة، أتاحت لليدي بلنت فرصة لم تتح لغيرها من المستكشفين فولجت إلى داخل قصور الرشيد وخالطت نساءهم واطلعت على خصوصيات حياتهم العائلية وكتبت عن ذلك بشكل مفصل . وتقول إنها رأت في بلاط ابن رشيد ولأول مرة جهاز التليفون الذي كان آنذاك اختراعاً حديثاً لم تكن قد رآته قبل وصولها إلى حائل . أما هوبير فإن من أطرف ما يورده في مذكراته ذكره للدعوة التي أقامها في المنزل الذي يقيم فيه على شرف حسن بن مهنا وراكان بن حثلين حيث قدم لهما أنواعاً من المشروبات والحلويات اللذيذة التي لم يألفاها ولم يسبق لهما تذوقها .

وخلال فترة خدمته في الجيش البريطاني في العراق والأردن اتصل الضابط البريطاني جلوب باشا John Baggot Glub بأبناء البادية وتعرف على حياتهم وكتب عنهم عدداً من الكتب والمقالات . ويقدم جلوب باشا في كتاباته معلومات قيمة عن حركة الإخوان

وزعمائهم وطرقهم في الغزو والغارات التي كانوا يشنونها على مناطق الحدود العراقية . ومن الكتب المهمة عن حركة الإخوان وعن حياة البدو عموماً كتاب The Arab of the Desert الذي كتبه ديكسون H. R. P. Dickson والذي أمضى سنين طويلة في العراق والبحرين والكويت .

ولا يليق أن نبخس هؤلاء الرحالة والمستكشفين حقهم ولا أن نقلل من شأن أعمالهم إلا أن المتتبع لكتاباتهم يلاحظ أنها في أغلب الأحيان تتراوح بين الرومانسية المغرطة والتحيز الشديد وتغلب عليها روح المغامرة والإثارة وأنها أقرب إلى الأسلوب الروائي الأدبي منها إلى الأسلوب العلمي التوثيقي . وغالباً ما يحتل الكاتب المغامر في هذه الأعمال المركز البطولي الذي تتسلط عليه الأضواء وتتمحور حوله الأحداث وتطفئ على عمله السمة الانطباعية والصبغة الذاتية فيحكم على الأمور من منطلق قناعاته الشخصية وخلفيته الاجتماعية والثقافية ويقيم الناس والأحداث وكل الأشياء كمجرد وسائل وأدوات تعينه أو تقف دونه ودون الوصول إلى أهدافه وتحقيق طموحاته . ويصل هذا المنهج ذروته عند لورنس T. E. Lawrence في كتابه أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom . ومن بين هذا النوع من الكتب يحتل كتاب الرمال العربية Arabian Sands الذي كتبه ويلفريد ثيسيجر Wilfred Thesiger ، مسجلاً فيه رحلته المثيرة عبر الربع الخالي على الإبل ، مكاناً متميزاً نظراً لما يحسه القارئ من صدق الكاتب في تواضعه مع البدو وفي تعاطفه مع طرق معيشتهم وفي تقديره لهم وتعبيره عن إعجابه بنسيجهم الأخلاقي وقدرتهم على الصبر والتحمل . وكان الربع الخالي بالنسبة للرحالة الغربيين يشكل آخر المعالم المجهولة في الجزيرة العربية . ومن الذين شاركوا ويلفريد ثيسيجر في عبور هذه المفازة الموحشة برترام توماس Bertram Thomas وجون فيليب St. John Philby ، وهؤلاء يمثلون الجيل الأخير من الرحالة الكلاسيكيين الذين استكشفوا الجزيرة على ظهور الإبل وبهم طويت آخر صفحة من صفحات المغامرة والاستكشاف في جزيرة العرب .